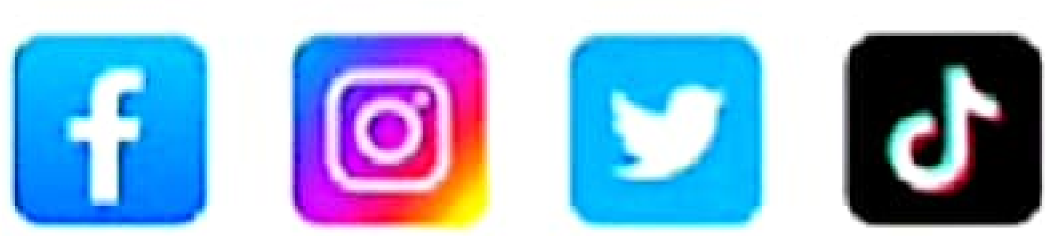

عائشة أتيجي أرايانجان
الحشَّاشون
الأساطير والحقائق
ترجمة
أحمد زكريا
ملاك دينيز أوزدمير
دار النهضة العربية
t.me/twinkling4



دار النهضة العربية
بيروت - لبنان
شارع الجامعة العربية - مقابل كلية طب الأسنان
بناية اسكندراني رقم - 3 الطابق الأول
Tel & Whatsapp +961 1 833270 / +961 1 854161
darnahda@gmail.com
تاريخ النّشر: 2025

ISBN 978-614-505-0322
رقم الكتاب: 19226
عنوان الكتاب: الحشاشون
المؤلّفة: عائشة أتيجي أرايانجان
الموضوع: تاريخ
ترجمة: أحمد زكريا | ملاك دينيز أوزدمير

هذه ترجمة عربية كاملة، عن الأصل التركي، لكتاب:
Hashishler - Efsaneler ve Gerçekler
Ayse Atıcı Arayancan
Publisher: Yeditepe Yayinlari






@darnahda
www.darnahda.com



تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب



مقدمة

ترددت الأساطير والحكايات حول حسن الصباح والإسماعيليين من لغة إلى أخرى ولا تزال تتردد حتى اليوم. وقد وردت بعض الأحداث الخيالية حولهم في عدد من الدراسات، وخاصة الدراسات التاريخية والروايات والأفلام، وأغلب ما يُحكى خيال بعيد عن الحقيقة التاريخية.

إن الغرض الأساسي من هذه الدراسة هو الكشف عن حقيقة الأساطير التي رُويت عن حسن الصباح والهيكل الذي بناه، استنادًا إلى الوثائق التاريخية.

وفي الكتاب نُتناول تسمية الحشاشين، وشبكة حسن الصباح الدعائية، وهياكله الاستخباراتية والتنظيمية، وقلعة آلموت والارتباط الباطني، وحقيقة حديقة الجنة، وقصة الفدائيين حاملي الخناجر واغتيالاتهم، وصداقة نظام الملك وعمر الخيام وحسن الصباح، إلى جانب طريقة تسلُّل الإسماعيليين النزاريين إلى الدولة والجيش، وعقيدتهم ومقاومتهم، وحقيقة استخدامهم للخشخاش والنبيذ، والمجازر التي وقعت في العاصمة السلجوقية أصفهان، إضافة إلى نظرة ثاقبة حول علاقاتهم مع بالصليبيين وفرسان المعبد... إلخ. وقد نُوقشت عدة مواضيع أخرى بشكل موضوعي واستنادًا إلى الأدبيات التاريخية، إضافة إلى إعادة تقييم الأحداث التاريخية بشكل مختلف وموضوعي، وباستخدام



لغة بسيطة وسهلة.

أود أن أشكر جميع أصدقائي الذين ساعدوني في أثناء القيام بهذا البحث، وعائلتي العزيزة ودار النشر Yeditepe على صبرهم ودعمهم اللا متناهي.

عائشة أتيجي أرايانجان

أنقرة 2017



حول تسمية (الحشاشين)

أخذ مصطلح (الحشاشين) -الذي يكثر استخدامه في الروايات والأفلام، وفي الصحافة والإعلام- طابعًا أسطوريًّا مُحمَّلًا بالغموض والموت، وصار يُطلق على التنظيم الذي يُنظر إلى أتباعه كـ"قتلة". هذه الصورة، التي خلقها تصور الإسلاموفوبيا في كتابات الغربيين في العصور الوسطى، قد انعكست أيضًا على الدراسات الأكاديمية مع مرور الوقت. ولعبت الروايات حول حسن الصباح الذي سكن قلعة آلموت، والاغتيالات التي نفَّذها وحديقة الجنة التي أنشأها، وخصوصًا في المصادر الغربية، دورًا فعَّالًا في نشر هذا الاسم وترسيخه، وهو مأخوذ من اسم المادة المخدرة التي يُقال إن الإسماعيليين تعاطوها.

وقد أُطلق عليهم اسم (الحشاشين) بسبب شائعات مفادها أن حسن الصباح جعل الشباب الذين تجمعوا حوله يشربون الحشخاش. وواقعيًّا استُخدم مصطلح (الحشَّاشية) لأول مرة من قِبل النظام الفاطمي في القاهرة عام 1123م. كما استُخدم مصطلح (الحشاشية) عدة مرات لوصف النزاريين السوريين، في رسالة (إخوان الصفا) المناهضة للإسماعيليين النزاريين. وبالمثل، استخدم البنداري، أحد مصادر تلك الفترة، مصطلح (الحشاشين)، ولكن ليس للإسماعيليين النزاريين الإيرانيين، بل للإسماعيليين النزاريين السوريين في عمله الذي يحمل عنوان (زبدة النصرة ونخبة العصرة).



غير أن مصطلح (الحشاشين) لم يُذكر في المصدر الأساسي الذي يحمل عنوان (تاريخ جهان كشا) لعطا ملك الجويني، الذي رأى قلعة آلموت (وخاصة أنه شهد شخصيًّا أحداث انهيار الإسماعيليين النزاريين، وشارك في مفاوضات السلام بين ركن الدين آخر شيوخ الإسماعيليين، وهولاكو)، ولا في عمل رشيد الدين فضل الله الهمذاني الذي يحمل عنوان (جامع التواريخ)، ويقدم معلومات مفصلة عن الإسماعيليين.

وفي حين أن مصطلح (الحشاشين) لم يُستخدم في أي من مصادر المسلمين في العصور الوسطى، فإنّ هناك عبارات مهينة قد أُطلقت عليهم، مثل (الطائفة المنحرفة)، و(المنحلّين)، و(الجهلاء المنحطّين)". ومن ناحية أخرى، ميَّز الإسماعيليون النزاريون أنفسهم عن الإسماعيلين الفاطميين باستخدام مصطلحات مثل (الدعوة الهدية)، و(الدعوة الجديدة)، و(الدعوة القديمة).

وقد استخدم مؤرِّخو الحملات الصليبية مصطلحات مثل (أساسان، و(عساسان)، و(أساسين) لوصفهم، بينما استخدم المؤرخون العرب اسم (باطني) بتعبير أكثر عمومية. إضافة إلى ذلك، فهناك تفسيرات مختلفة لكيفية استخلاص كلمة (الحشاشين) ومشتقاتها، التي يستخدمها الغربيون على نطاق واسع. وبينما يقول بعض الباحثين الغربيين إن هذه الكلمة تحريف لكلمة (أساسان) وتعني العيش في الحصون الحجرية، فإنهم يزعمون أيضًا أن هذا



الاسم مشتق من الكلمة العربية (عسس)، ولهذا استُخدم هذا الاسم.

لم يفهم الكُتَّاب الغربيون البعد الإيماني للهيكل الذي أسسه حسن الصباح ودعايته، لأن أتباعه ضحوا بأنفسهم في سبيل قضيتهم دون مساءلة. وعندما لم يفهموا مسألة الطاعة غير المشروطة لشخص ما والاغتيالات التي قاموا بها، ربطوا الاسم باستخدام الحشخاش. ومن ناحية أخرى، استخدم الغربيون مصطلح (الحشاشين) لتشويه سمعة النزاريين والتقليل من شأنهم. واخترع الغربيون قصصًا خيالية، وألَّفوا أساطير من أجل تقديم تفسير معقول لبعض التصرفات التي تبدو غير عقلانية لأعضاء الطائفة. وقد استخدموا مصطلح (الحشاشين) كمرادف لكلمة (القتلة)، إلى جانب خلق الأساطير المبنية على القصة التي كتبها ماركو بولو في رحلته حول الفدائيين وحديقة الجنة، وهكذا شاع استخدام مصطلح (الحشاشين) بمعنى (القتلة).

إن مصطلح (الحشاشين) الذي لم يَرِدْ في المصادر الإسلامية الأولى، أصبح شائعًا على مر الزمن من قِبل الكُتَّاب الغربيين والصليبيين، إلى جانب أسطورة حديقة الجنة، والاغتيالات التي ارتكبها الفدائيون الذين يستخدمون الحشخاش. لكن الاسم الصحيح الذي يجب استخدامه لهم هو (النزاريون الإسماعيليون)، وقد أُطلق عليهم لأن الحسن الصباح دعم نزارًا ابن الخليفة الفاطمي.



أما (الإسماعيليون) فهو الاسم الذي أُطلق على ابن الإمام السادس جعفر الصادق. وبسبب الجدل حول الإمامة، بعد وفاة جعفر الصادق عام 765م، انقسم أنصار جعفر الصادق طوائفَ مثل الإسماعيلية، والنفيسية، والشميطية، والفطحية، والموسوية. والنزاريون المنسوبون إلى جعفر الصادق هم فرع من فروع الإسماعيليين، ولهذا السبب فإن الأصح استخدام اسم (إسماعيليون نزاريون).

وبصرف النظر عن تسمية (الإسماعيليين النزاريين) و(الباطنية) و(الحشاشين)، فقد سُمي هذا التنظيم بـ(الصبَّاحية) نسبة إلى حسن الصباح. وعُرف أتباع الصباح أيضًا بـ(الفدائيين) لأنهم تدربوا على الطاعة غير المحدودة. لقد قبلوا حكم الرأي والعقل، واعتقدوا أن العلوم لا يمكن الحصول عليها إلا خطوة بخطوة بالتعلُّم من الإمام، ولأنهم قاموا بالدعاية بهذه الطريقة، فقد أطلق عليهم أيضًا اسم (التعليمية).



الإسماعيليون النزاريون

إن الإسماعيليين، المعروفين اليوم باسم الأغاخانيين، الذين يقومون بعدد من الدراسات في (معهد الدراسات الإسماعيلية) بلندن، والإسماعيليين النزاريين، مهمون لفهم التشيُّع في الشرق الأوسط، وخاصة في إيران والعالَمين التركي والعربي اليوم.

والإسماعيليون الأوائل هم الذين اعتقدوا أن إسماعيل، الابن الأكبر لجعفر الصادق، هو الإمام السابع. ولمدة قرن ونصف بعد ظهور الإسماعيلية المبكرة، بقي الأئمة الإسماعيليون متخفين. وخلال ذلك، وبينما كان (الدعاة) يحكمهم تسلسل إداري هرمي، أسَّسوا مراكز إسماعيلية في مناطق بعيدة عن بعضها. وقد ظهر الإسماعيليون، الذين كانت فتراتهم الأولى مظلمة ومضطربة، إلى النور مرة أخرى مع الدولة الفاطمية في بداية القرن العاشر. ولم يتمكن الإسماعيليون، الذين برزوا كطائفة شيعية في التاريخ، من تأسيس دولة عظيمة إلا مرة واحدة.

لقد تركت دولة الإسماعيليين الفاطميين أثرًا خطيرًا على المجتمع المسلم سياسيًّا واقتصاديًّا وعلميًّا وثقافيًّا، ولعبت دورًا مهمًّا، ليس فقط في العلاقات السنية الشيعية، بل أيضًا في تغيير التوازنات في العالمين المسيحي والإسلامي. وبشكل عام، يُنظر إلى الإسماعيلية في العالم الإسلامي



كطائفة غنية وعميقة الجذور من حيث العقيدة الفلسفية. وفعلًا يظهر ذلك من خلال مساهمات عدد من فلاسفة وعلماء الإسلام من أمثال ناصر خسرو، ونصير الدين الطوسي، وابن عطّاش.

وامتدت حدود الدولة التي أسّسوها في جغرافية واسعة بشمال إفريقيا وصقلية والحجاز ومصر. وجعلوا من الأزهر الذي بنوه في القاهرة مركزًا للتعاليم والدعوات الإسماعيلية، وواصلوا دعايتهم لفترة طويلة. ومع وفاة المستنصر بالله (1094)، الخليفة الثامن للفاطميين، انقسمت الإسماعيلية الفاطمية فرعين: الإسماعيلية النزارية، والمُسْتَعلية.

ووفقًا لمصادر تلك الفترة، فإن الخليفة الإسماعيلي المستنصر بالله في القاهرة، قد عيَّن ابنه الأكبر خلفًا له قبل وفاته عام 1094. ومع ذلك، فإن الأفضل، الذي شغل منصب الوزير والقائد الأعلى في الدولة الفاطمية، قام بمحاولات وتآمر لجعل المستعلي - وهو الابن الأصغر للمستنصر - إمامًا بدلًا من نزار. وعندما اعترضت مجموعة من الإسماعيليين على خلافة المستعلي، بدأت الصراعات. ونتيجة لذلك، هرب نزار من القاهرة إلى الإسكندرية مع ولدَيه، وبدأ تمردًا بدعم من قومه، وأعلن الخلافة لنفسه. ومع ذلك، فقد ورد في بعض المصادر أن الجنود الذين أرسلهم المستعلي قبضوا على نزار ونقلوه إلى القاهرة، وأنه سُجن مع ولدَيه بأمر المستعلي وقُتل بعد وقت قصير.

في هذه الأثناء، وافق حسن الصباح، الذي يقوم



بالدعاية نيابة عن الفاطميين، على أن يتولى نزار، الابن الأكبر للمستنصر، الخلافة، وقرأ الخطبة نيابة عن نزار، بل وأرسل أحد أبنائه إلى الإسكندرية لإحضار نزار إلى قلعة آلموت. وبحسب بعض الروايات، فقد ذهب نزار، الذي هرب من الفاطميين، إلى حسن الصباح في كوهستان مع ابنه البالغ من العمر سنة واحدة، وبقي هناك لمدة عام. لقد دافع الصبَّاح عن إمامة نزار وأحفاده الذين كان من المفترض أن يخلفوا والدهم، لكنهم لم يتمكنوا من ذلك، بعد وفاة المستنصر (1094)، أحد الخلفاء الفاطميين، وقام بأنشطة عديدة في المنطقة الإيرانية.



حسن الصبَّاح

أثار حسن الصباح وفدائيوه واغتيالاته وكل ما أسَّسه، الاهتمام عبر التاريخ، بما في ذلك العصر الذي عاش فيه، وأصبح شخصية تاريخية تُروى عنها قصص غامضة وأسطورية. يعود نسب حسن الصباح إلى قبيلة حِمير العربية التي هاجرت من اليمن إلى الكوفة ثم إلى قُم، وكان الإسماعيليون ينادونه بـ(سيدنا حسن). وقد أرسله والده إلى الري لأن حسن الصباح أراد أن يصبح رجل دين، عندما كان عمره سبع سنوات فقط. وكانت الري مركز نشاط الدعاية الإسماعيلية، وهناك تلقَّى علوم الكلام والمنطق والفلسفة والرياضيات على يد الموفق النيسابوري، أحد كبار علماء خراسان. وهناك أيضًا تعرَّف على أحد أبناء الطائفة الإسماعيلية، وهو أمير ضرَّاب، وتعرَّف تدريجيًّا على الإسماعيلية، وانضم لاحقًا إلى القضية الفاطمية. في الواقع، ينتسب حسن الصباح إلى طائفة الاثنَي عشرية، وبدأ التشكيك في الإسلام إلى حد كبير عندما كان عمره 17 عامًا فقط، وكان للمرض الخطير والمميت الذي أُصيب به تأثير كبير في تغيير رأيه. ويصف الجويني، أحد المؤرخين المهمين في تلك الفترة، لقاء حسن الصباح بأمير ضرَّاب وفترة تعلُّمه الإسماعيلية على لسان حسن الصباح كما يلي: "كنتُ من طائفة الاثنَيْ عشرية من المذهب الشيعي، وهو مذهب أجدادي. وكان هناك شخص اسمه أمير ضرَّاب من الطائفة الإسماعيلية المصرية في الري.



وكانت الري مركز نشاط الدعاة الإسماعيليين في ذلك الوقت. وكنا نتجادل حول المذاهب، ودائمًا ما كان يدحض آرائي ويهين طائفتي. في ذلك الوقت، لم يكن إيماني قويًّا. وعلى الرغم من أنني قاومتُ، فإنّ كلماته ظلَّ أثرها في قلبي. ثم أصبت بمرض خطير. وبسبب تعصبي الشديد، لم أتمكن من الحديث عن شكِّي لأي شخص. قلتُ لنفسي إذا جاء موعد الموت فسأموت قبل أن أصل إلى الحقيقة. وبسبب هذا التغيير في الاعتقاد الذي حدث معي، تغلَّبتُ على هذا المرض دون تدخل أحد. وإلى جانب ذلك، طلبتُ معلومات عن الطائفة الإسماعيلية من شخص يُدعى نجم السراج. ووبعد أن قدم لي شرحًا مفصلًا، عرفت أسرار تلك الطائفة" (الجويني، 1999: 89-38). هكذا لخَّص حسن الصباح تحوَّله إلى المذهب الإسماعيلي وفترة الدعوة والقبول.

وفي وقت لاحق، التقى بابن عطَّاش، الداعي الرئيس للمنطقة الإيرانية. وقد جاء إلى الري ووافق على دخول حسن الصباح إلى الطائفة وكلَّفه بمهمة تنظيم الدعوة. ومن أجل تلقِّي تعليم أفضل حول الإسماعيلية، أرسله ابن عطاش إلى الخليفة الفاطمي المستنصر في مصر. وبعد إقامته في مصر لفترة، غضب من تعيين المُستعلي بدلًا من نزار بعد وفاة المستنصر، وبدأ في توجيه الناس للالتفاف حول نزار، الابن الآخر للمستنصر. ومع ذلك، بعد خلاف حسن الصباح مع أمير الجيوش، والد زوجة المستعلي وقائد



الجيش، تم وضعه على متن سفينة مع مجموعة من الفرنجة ونُفي إلى شمال إفريقيا. وفي الطريق، كانت السفينة معرضة لخطر الغرق، وأرسله مَن أنقذوه إلى سورية. ومن هناك مرَّ حسن الصباح بحلب وبغداد وخوزستان، ثم عاد إلى أصفهان، وأقام في إيران تسع سنوات. خلال هذه الفترة، سافر إلى مناطق مختلفة من إيران مثل يَزْد وكِرْمان ودَمغان، ودعا من أجل نزار.

كان الصباح يرتدي ملابس درويش، وتمكن من جذب القبائل التي تعيش هناك إلى جانبه مستعينًا بالخطابة. وبعد ذلك، دعا لمدة ثلاث سنوات في أماكن مثل ديلم وجيلان ومازندران، وهي مناطق جبلية كانت العقيدة الإسلامية ضعيفة فيها، وتعيش فيها القبائل المتمردة. ووُضع الصباح تحت المراقبة من قِبل الوزير السلجوقي نظام الملك، وقد كان إحدى القوى الاستبدادية آنذاك. هرب الصباح من نظام الملك وذهب إلى كرمان ثم إلى قزوين. وبعد أن سئم حسن الصباح الهروب والاختباء المستمر، بحث عن مكان آمن، لا يمكن الوصول إليه بسهولة، ويمكن أن يتمتع فيه بالحماية لفترة طويلة. ولهذا السبب قرر الاستقرار في قلعة آلموت التي رآها مناسبة استراتيجيًّا وجغرافيًّا. بدأ حسن الصباح، الذي لم يغادر قلعة آلموت مطلقًا لمدة 35 عامًا، معارضة الخلافة العباسية السنية والسلاجقة بأفعال غير مسبوقة في التاريخ.

أرسل حسن الصباح، الذي مرض في سنِ التسعين،



رجلًا إلى لاماسار قبل وفاته مباشرة. استدعى كِيا بُزُرك أُميد، أحد الأشخاص الأكثر ثقة من حوله، وعيَّنه خلفًا له. وأجلس على يمينه أحد رجاله، وهو دهدار أبو علي أردستاني، وكلَّفه بالدعاية. وبعد أن أجلس الصباح حسن أدمي كسراني على يساره وجعله قائدًا للجيش، أوصاهما قائلًا: "إذا جاء الإمام، وأراد أن يستولي على بلاده، فكونوا بجانبه". وبعد هذه الوصية بوقت قصير، توفي الصباح يوم الجمعة 23 مايو 1124، ودُفن في القبر الذي بُني قريبًا من آلموت. وهذا القبر الذي كان الإسماعيليون يزورونه، دمَّره المغول في ما بعد.

عاش الصباح في قلعة آلموت في غرفة متواضعة فيها سرير ومكتبة. وفي الحقيقة، عاش الصباح في قلعة آلموت لمدة خمسة وثلاثين عامًا من أجل قضيته، وبحسب عدد من الروايات، فإنه لم ينزل من القلعة أبدًا، ولم يخرج إلا مرتَين فقط، للصعود إلى سطح القلعة. كرَّس حسن الصباح حياته لخدمة القضية الإسماعيلية، وعزل نفسه عن كلِّ شؤون الدنيا، وأمضى كلَّ وقته في القلعة يصلي ويقرأ الكتب ويدوِّن أفكاره حول الإسماعيلية ويتعامل مع شؤون الدولة.

بعد استيلاء حسن الصباح على قلعة آلموت وإعلان استقلاله، لم يستخدم أبدًا لقب سلطان أو أمير. واكتفى بلقب (سيدنا)، دون أن يطلق دعوة دينية باسمه. وبينما انتظر ظهور الإمام السري لنشر الدين، كان بمثابة الدليل



لهذا الإمام (الإمام القادم). ومع أنه لم يَدَّعِ قط أنه الإمام، فقد جادل بأنه ممثل هذا الإمام ووكيله، وكان دائمًا ما يقوم بالدعاية كمؤسس للدعوة الجديدة. كان حسن الصباح مُنَظِّمًا وسياسيًّا استراتيجيًّا فريدًا من نوعه، تمكن من جمع جماهير غفيرة حوله ببنيته التنظيمية، وبنى دعايته على أسس متينة من خلال العمل بشكل منهجي. وإضافة إلى ذكائه الحاد وشخصيته الثورية، حاول أن ينقل قضيته إلى أفضل مستوى بهويته الأدبية. وفي أثناء محاولته تثقيف المريدين والفدائيين الشباب وأهل قلعة آلموت، قام بتعليمهم كيف يكونون أفرادًا أخلاقيين ومفيدين للمجتمع. والأعمال التي كتبها حسن الصباح، أُحرقت من قِبل زعيم قلعة آلموت جلال الدين، الذي تبنى العقيدة السنية في الفترات التالية، حيث كان يُنظر إلى تلك الأعمال على أنها (هرطقات)، وأُحرقت مرة أخرى عندما استولى المغول على القلعة.

لقد أسس حسن الصباح تنظيمًا على مبادئ أساسية مثل التقوى والزهد والصدق وضبط النفس. والواقع أنه لم يرحم كلَّ مَن اخترق هذه المبادئ في قلعة آلموت، ولم يتردد في إنزال أشد العقوبة عند الضرورة. وقد أولى أهمية للتقوى والتزم بالمبادئ الأساسية للبنيان الذي أسسه، وقتل ابنه محمد بالجلد لأنه شرب الخمر خلافًا لأحكام الدين. بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك؛ فقتل ابنه الآخر حسين الصباح من أجل قضيته، دون تردد، ظَنًّا منه أنه



معارض له. ووفقًا لإحدى الروايات، فقد كُشف عن أن شخصًا يُدعى زيد حسن كان يقوم بدعوة سرية، وفي أثناء ذلك أمر أحمد دنبفردي بقتل الداعي الكوهستاني حسين كاني، وقد ظهر بعد ذلك أن زيد حسن هو مَن فعل هذا، وألقى التهمة على نجل حسين الصباح ونجل حسن الصباح. وبعد معرفة الحقائق، ندم حسن الصباح على ذلك، ولكن بعد فوات الأوان، ثم أمر بقتل أحمد دنبافيردي الذي افترى على ابنه.

وفي أثناء حصار قلعة آلموت، أرسل زوجته وابنتَيه إلى جيردكوه، وكتب الصباح إلى الرئيس مظفر: "سَخِّر هؤلاء النساء للعمل في النسيج من أجل مساعدة قضيتنا. إذا قمنَ بهذه المهمة، فادفع لهنَّ". وهكذا لم يرَ حسن الصباح نفسه ونسبه أفضل من نسب الإمام، وبنى قضيته كلها على نزار ونسبه. وما ذكره الجويني يثير التفكير، إذ يقول: "يقولون عن الصباح: ذات يوم، كتب نفر من رجاله نسب أسلافه وأَحضروه إليه، إلا أنه تصرَّف وكأنه لا يعجبه، وألقى تلك الورقة المليئة بالمجاملات في الماء" (الجويني، 1999: 547).

تمتع حسن الصباح بشخصية قوية، وبحكمةٍ وبصيرة، وكان لديه معرفة عميقة في الهندسة الرياضية والحساب وعلم الفلك وغيرها من فروع العلوم. هذه القدرات وما شابهها مكَّنته من الدفاع عن قضيته وكسب دعم الناس. وعلى الرغم من كلِّ الشائعات السلبية عنه، فإنه



كان رجلًا زاهدًا وتقيًّا. وخلال خمسة وثلاثين عامًا من قيادته لم يترك العبادة، وعاش حياة تقية زاهدة قانعة، وحاول الالتزام بالشريعة، ولم يشرب الخمر، ولم يسمح لغيره بالشرب. لقد اتبع بلا هوادة أسلوب الحياة الإسلامي الصارم الذي فرضه على المجتمع النزاري، وخاصة أولئك الذين يعيشون في رودبار. وأعطى أهمية كبيرة للامتثال لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو أحد الواجبات الدينية الأساسية في الإسلام. وتماشيًا مع هذا المبدأ، وكما ذكرنا أعلاه، فقد قتل أحد ولدَيه، محمد، بسبب شرب الخمر. وبالمثل، فإن قيامه فورًا بطرد أي شخص كان يعزف على مزمار خارج القلعة يدل على حساسيته الدينية.

رعى حسن الصباح، الذي أولى أهمية للعلم، عددًا من العلماء في قلعة آلموت، وتلقّى منهم الدعم في دعايته. لقد جمع الصباح حشدًا كبيرًا خلفه، ومات بعضهم في سبيل قضيته، وهذا دليل على أنه كان بعيد النظر، وواسع الأفق، ولديه قدرة عالية على الإقناع. لقد عاقب دون تردد أي شخص يخلّ بمُثُله العليا والنظام الذي أسسه، حتى لو كانت زوجته أو ابنه.

قام حسن الصباح، القائد الذي ناضل من أجل ما يؤمن به، بتعليم طلابه على هذا الأساس ونصحهم بعدم الرضوخ للظلم والتضحية حتى بأرواحهم من أجل هذه القضية عند الضرورة. لقد قاوم الصباح الهجمات السلجوقية المتعاقبة بوعيه وعبقريته العسكرية وقوة نفوذه



واستراتيجيته التنظيمية. وقد رُسمت صورة سيئة وغامضة لحسن الصباح من قبل الكُتّاب الغربيين والمسلمين السنة، وكان من الطبيعي أن يُوصف من قبل المؤمنين به من وجهة نظر معاكسة. على سبيل المثال، فإن وصف حسن الصباح مثير للاهتمام، في كتاب محمد بن زين العابدين الخرساني بعنوان (تاريخ الإسماعيلية). وقد قال عن حسن الصباح: "لم يرتكب أحد في زمانه ظلمًا أو سُوءًا. وكانت تُتلى الأدعية من أجله. ولقب حسن الصباح هو (سيدنا). وكان حسن المظهر وله وجه جميل. وكان وجهه مشرقًا مثل شمس الصباح. خلال حياته، كان هناك عدد من الفدائيين في كلِّ مكان. وكل مَن ظلم ولم يقل "أشهد أن عليًّا ولي الله" كان يُقتل. وكان يمنع فاعلي الشر من قومه عن الناس. وقد قوي مذهب الشيعة في إيران، وكانوا يأخذون بنصيحة حسن الصباح" (الخرساني، 1362: 92-93)، وهذا ما يلخص حال قضيتهم وقادتهم.

كان حسن الصباح زعيمًا دينيًّا وسياسيًّا غيّر مجرى التاريخ. والواقع أنه ترك آثارًا خطيرة في أراضي إيران والعراق وسورية، من خلال تطبيق مختلف الأساليب المعروفة وغير المعتادة في فترة حكمه. وبالنظر إلى ظروف تلك الفترة، فإن الأعمال التي نفَّذها، والاغتيالات التي نظَّمها، هي في الواقع مختلفة وفريدة للغاية، بالنظر إلى ظروف تلك الفترة. ومن خلال تسييس الدين، أكسب تنظيمه أداء ميليشاويًّا من حيث التسلسل الهرمي



والانضباط.



قلعة آلموت والرابط الباطني

أصبحت قلعة آلموت التي اختارها حسن الصباح موقعًا له، قلعة أسطورية بأسرارها وارتفاعها وصعوبة الوصول إليها وحديقة الجنة، بمنظور استشراقي يُحكى من الماضي إلى الحاضر. وقد رُويت قصة القلعة، التي كان من الممكن الدخول إليها عبر طرق سرية في عهد حسن الصباح، بطريقة باطنية وغامضة في ذلك الوقت وفي يومنا هذا، بسبب ممارسة التَقِيَّة من قبل النزاريين.

تقع قلعة آلموت على حدود ديلم، وهي مبنية على صخور يتجاوز ارتفاعها ألفَي متر. وتشكل أعلى قمة في سلسلة جبال ألبُرز في المنطقة. ويمكن الدخول إليها من نهر آلموت في وادي رودبار عبر ممر ضيق بين الصخور البارزة الشديدة الانحدار. وآلموت تتكون من كلمتَي (آلوه) و(آموت)، وتعني جِلد النسر أو تدريب النسر أو عشّ النسر في لغة الديلم. وقد اكتسبت القلعة شهرة كبيرة بفضل حسن الصباح، وتم الحديث عن كراماتها وغموضها. وذكر بعض مؤرخي العصور الوسطى -مثل حمد الله المستوفي وفضل الله الهمذاني- أنه إذا أعطيت القيمة العددية باللغة العربية لكلِّ حرف في الاسم الكامل (ألوه)، و(آموت) للإسماعيليين النزاريين، فإن المجموع هو 483، وهو ما يتوافق مع السنوات التي حكمها حسن الصباح، وفقًا لحسابات الإسماعيليين الذين يؤمنون بوجود رابط باطني بين القلعة وحسن الصباح.



وبحسب ما رواه الجويني، أحد أفضل شهود تلك الفترة، وقد حضر استيلاء المغول على قلعة آلموت وشارك في مفاوضات السلام بينهم وبين الإسماعيليين، فقد بُنيتْ مستودعات وأقبية في قلعة آلموت لتخزين الأطعمة. ومن أجل تلبية الاحتياجات المائية لأهل القلعة، فُتحت قنوات مائية أسفل القلعة، وغُطيت واجهة قناة المياه بالحجارة، وأُنشئتْ برك لتخزين المياه. قام حسن الصباح ببناء مخزن تبريد مثالي داخل القلعة. لقد كانت طرق تخزين الطعام لفترة طويلة في ظل ظروف تلك الفترة مذهلة حقًّا. ويذكر الجويني أن الإسماعيليين أرجعوا ذلك إلى كرامات حسن الصباح.

وعلى الرغم من كلِّ الأساطير، ظلَّت قلعة آلموت واحدة من الأماكن التي يصعب الوصول إليها والاستيلاء عليها لسنوات عديدة. وكانت أهم مركز للنزاريين من الناحية الحيوية والعسكرية.



أسطورة حديقة الجنة

"كان شيخ آلموت يقيم في وادٍ خلاَّب يقع بين جبلَين كبيرَين. لقد بنى حديقة كبيرة ملأى بأشجار الفاكهة وفيها نباتات جميلة، وفيها من كلِّ زهور وثمار العالم. كما شيَّد بيوتًا وقصورًا أجمل مما رآه أي شخص إطلاقًا، وكانت كلها مذهبة ومزينة بأجمل الأشياء في العالم، وأغطية جدرانها كلها من الحرير، وفيها عدد من النوافير التي يتدفق منها النبيذ والحليب والعسل، والمياه الصافية. وأجمل السيدات والفتيات يعشنَ هنا، وقد أجدنَ العزف على كل الآلات الموسيقية، والرقص حول هذه النوافير أفضل من أي امرأة أخرى في العالم، وتعلَّمنَ بما يكفي للتعرُّف على جميع أنواع الرجال ومداعبتهنَّ وإظهار جميع المهارات لهم. وكانت مهمتهنَّ توفير كلَّ أنواع المتعة والسرور للشباب هناك. وكان هناك عدد لا يحصى من الملابس، والفِراش، والمؤن، وكل ما يمكن أن يكون مرغوبًا فيه. هنا، لا يُتحدَّث أبدًا عن أشياء لا قيمة لها، ولم يكن مسموحًا بقضاء الوقت مع أيِّ شيء سوى اللعب والحب والمرح. وهكذا كنَّ يسبحنَ في الحرير والذهب، ويستمتعنَ طوال الوقت في الحدائق والقصور. ولم يكن مسموحًا بظهورهنَّ في الخارج. كان الشيخ يخبر رجاله أن هذا المكان هو الجنة. وكان يقول الشيء نفسه تمامًا كما قال محمد، إنّ الذين قبلوا دعوته سيذهبون إلى الجنة. هناك سيجدون كل الملذات وعددًا من النساء الجميلات اللواتي



يرغبنَ في مغازلتهنَّ، والحدائق الجميلة المليئة بأنهار يتدفق منها النبيذ والحليب والعسل والماء. ولهذا السبب اعتقد أتباعه اعتقاداً راسخاً أن هذه الحديقة هي الجنة. أما الشيخ فكان يريد أن يقنع الناس بأنه نبي ويستطيع أن يُدخل الجنة مَن يريده، ولم يُسمح لكل الرجال بدخول هذه الحديقة. فقط الذين يراهم الشيخ نفسه مناسبين، والذين يريد الشيخ أن يجعلهم قتلة. وعلى عتبة الوادي، عند مدخل هذه الحديقة كان للشيخ قلعة قوية جدًّا لا تُقهر. لم يكن الشيخ خائفًا من أي شخص في العالم. وكان من الممكن الدخول إلى الحديقة من خلال طريق سري، وكان هذا الطريق محروسًا بعناية شديدة. ولم يكن من الممكن دخول الحديقة من أي مكان آخر، إلا من خلال ذلك الممر" (ماركو بولو 2003:119). بهذا الشكل صُوِّرت حديقة الجنة في آلموت، التي أصبحت أسطورية، وكانت موضوعًا للأفلام والروايات.

تظهر هذه السطور التي كتبها ماركو بولو في كتاب رحلاته، واسمه الأصلي هو "Le Devisement du monde Le Livre des Merveilles I" (قصة العالم، كتاب العجائب). وعلى الرغم من أن المعلومات الواردة في العمل، التي ترجمها إيشيك إرجودن إلى اللغة التركية، لا تعدّ موثوقة عند المختصين في هذا الموضوع، فإن قصة الفدائيين وحديقة الجنة التي ذكرها ماركو بولو قد أثرت بشكل كبير في الكُتَّاب من بعده. ولأن ماركو بولو هو



الشخص الأول والوحيد الذي ذكر حديقة الجنة في عصره، على عكس الكُتَّاب الغربيين والصليبيين في العصور الوسطى، فقد لقيت هذه الحكايات قبولًا سريعًا وأصبحت أسطورية.

وفي حديثه عن القلعة، قال ماركو بولو إن حاكم آلموت قد بنى قصورًا لم يسبق رؤيتها من قبل، وكانت مذهبة ومزخرفة وجدرانها مغطاة بالساتان والنبيذ والحليب والعسل، والماء يتدفق من نوافيرها. وعاشت أجمل النساء في العالم هنا، وكنَّ يسلين الرجال بالعزف على الآلات والغناء في تناغم. وكان شيخ القلعة يخبر الفدائيين أن هذه الحديقة هي الجنة، ويعدهم بأنهم سيجدون كل ملذاتهم، والنساء الجميلات اللواتي يرغبنَ في مغازلتهنَّ، والحدائق الجميلة المليئة بالأنهار التي يتدفق منها من النبيذ واللبن والعسل والماء. ومع ذلك، فإن دقة هذه المعلومات والمعلومات المشابهة المُقدَّمة حول حديقة الجنة داخل القلعة مثيرة للجدل؛ لأننا عندما ننظر إلى مصادر مباشرة مثل الجويني ورشيد الدين، اللذَين يقدمان معلومات عن الإسماعيليين، لا نستطيع أن نجد شيئًا عن حديقة الجنة.

لقد رأى الجويني القلعة بنفسه، ولم يذكر حديقة الجنة في عمله، بل وصف آبار المياه والمستودعات ومخازن التبريد المبنية في القلعة، والبساتين المحيطة بالقلعة. في واقع الأمر، كانت بساتين الفاكهة التي زرعها حسن الصباح حول قلعة آلموت موجودة فعلًا. وربما صارت حكايات قلعة



آلموت أسطورية بعد ذلك.

ومن ناحية أخرى، فإن عددًا من الجهات التي تدرس الموضوع تتباين وجهات نظرها حول ما إذا كان ماركو بولو قد رأى قلعة آلموت أم لا. وفي الحقيقة، مرَّ ماركو بولو بالمنطقة الإيرانية عام 1272، أي بعد 17 عامًا بالضبط من تدمير قلعة آلموت، وقد ثبت أنه لم يَرَ قلعة آلموت مطلقًا. وكما ذكر فرهاد دفتري، فمن المعروف أن ماركو بولو مرَّ بالمنطقة النزارية، المعروفة سابقًا باسم كوهستان، في أثناء رحلته إلى الصين. وفي أثناء مروره من هناك، صادف قلعة مدمرة، لكن من غير المعروف أي قلعة هي. كما أن هناك عددًا من القلاع التابعة للنزاريين في تلك المنطقة. ولذلك لا توجد قلعة آلموت التي ذكرها ضمنًا في طريق سفره. وبناء على المعلومات الواردة في عمل ماركو بولو، يُتوصَّل إلى الاستنتاج التالي: لم يَرَ الرحَّالة قلعة آلموت وحديقة الجنة، ونقل معلومات وهمية بناء على الملاحظات التي سمعها من السُّكَّان المحلِّيين في المنطقة عن نزاريي آلموت وإيران.

وكما هو معروف، بعد عودته إلى البندقية عام 1295، شارك ماركو بولو في حرب مع أهل جنوة وتم أسره. وفي أثناء أسره في زنازين جنوة، طلب من زميله في السجن روستي شيانو (1298) تدوين رحلاته، ويُقال إن ماركو كتب ببعض المبالغة ما سمعه من السكان المحليين في إيران عن شيخ القلعة وآلموت. ومن الطبيعي أن يروي ماركو



بولو أسطورة عن القلعة التي لم يرها من قبل في إيران والقصص التي سمعها فقط من السكان المحليين. عندما نفكر في تلك الفترة، لا بد أن تصرفات حسن الصباح وأتباعه والمجتمع النزاري، الذين عاشوا في قلعة عالية لسنوات، وأسلوب حياتهم، بدت غريبة بالنسبة لماركو بولو باعتباره غربيًّا.

ومرة أخرى، يدعي فرهاد دفتري حول هذا الموضوع، أن ماركو بولو قد تأثر بالكُتَّاب الغربيين من قبله مثل ﭼاك دي ڤيتري. ومن المحتمل أنه ربما يكون قد خلط عمدًا بين الأساطير التي كانت منتشرة عن النزاريين السوريين في أوروبا، وما سمعه هو بنفسه عن النزاريين السوريين في البندقية عندما عاد من رحلته عام 1295. لذلك، ذكر ماركو بولو أنه لم يكتب رحلته بناءً على ما سمعه في إيران فقط، بل قرأ وجمع أساطير الحشاشين عن النزاريين السوريين لكُتَّاب سابقين غربيين، وأحضر هذه الأساطير إلى إيران. ولأول مرة، كتب عن النزاريين الفرس في فترة آلموت. ولذلك فإن ما رواه ماركو بولو عن حديقة الجنة والفدائيين صارت حكايات مشهورة، هي معلومات تحولت إلى أسطورة تدريجيًّا مما رواه ماركو بولو ومن قبله الكُتَّاب الغربيون. وما رواه ماركو بولو أصبح غريبًا وأسطوريًّا بمرور الوقت، وصار اليوم موضوعًا للأفلام والروايات.



الدعوة الجديدة وعقيدة التعليم

إن الأفكار الإسماعيلية القديمة هي أساس دعاية حسن الصباح المسماة (الدعوة الجديدة).

وقد وضع الصباح اسم (الدعوة الجديدة) للهيكل الذي أسسه، لأنه أحيا الفكر والمذهب الإسماعيلي السابق للفكر الإسماعيلي الفاطمي. تغلَّب حسن الصباح على الخلافة الفاطمية، ونظَّم نفسه، وأعاد صياغة المذهب الإسماعيلي، وأسس عقيدة التعليم التي تقوم على التعلم التدريجي مع التمسُّك بالمذاهب الشيعية، وقد تمكنت من ترك أثر قوي في العالم السني.

وبحسب الإسماعيليين الذين تبنوا فكرة عقيدة التعليم من الإمام، فقد كشف اللهُ أسرارَ الشريعة لهذا الإمام. لذلك فالمؤمن ليس له إرادة، وعليه أن يتبع التعاليم المعروفة. كل ما يمكنه فعله هو اتباع الإمام؛ لأنه ممثل الحق. ولذلك فهو وحده القادر على إثبات الوحي والعقل. لقد أكد حسن الصباح باستمرار الأهمية المركزية للإمام في العلاقة المنطقية القائمة بين الله والنبي.

وتؤكد هذه العقيدة أن لكلِّ إمام سلطة تعليمية مستقلة لزمانه، وأصبح هذا التأكيد في ما بعد أداة أيديولوجية للإسماعيليين النزاريين. وفي الفترات التي لا يُوجد فيها إمام يمكن الوصول إليه، فإن السلطة المطلقة على الجماعة تعود إلى حجة الإمام. وعندما كان حسن الصباح هو الحجة، فإن



هدفه الأساسي تلخَّص في جمع أنصاره والمؤمنين تحت سقف واحد.

ويشرح الجويني هذه المسألة بقوله: "لقد أغلق حسن الصباح كلَّ أبواب المذهب أمام التعلُّم". وينقل لنا الجويني كلام الصباح من عمله المسمى (الفصول الأربعة)، إذ يقول: "معرفة الله غير ممكنة بالعقل والفكر، ولكنها ممكنة بإرشاد الإمام؛ لأن أغلب الكائنات التي تعيش في العالم لها عقل وفكر ديني. ولو كان العقل كافيًا لمعرفة الله، لما كان لأي عاقل مفهوم مختلف عن الله، ولما اختلفت الأفكار في هذه المسألة. لهذا السبب فإن كلَّ عاقل متدين بقدر عقله. طريقة التعلُّم تُبقي طريق الاعتراض والإنكار مفتوحًا. فمن الناس مَن يدخل الدين لحاجته، ومنهم مَن يدخله بالتقليد، ويلجأ كل واحد منهم إلى ذلك بالعقل. لكن العقل لا يكفي للدين. ولهذا السبب يجب على الناس أن يتعلَّموا الدين تحت إشراف إمام في كلِّ عصر. لقد دحضتُ أدلة المخالفين. يعتقد معظم الناس في العالم أن وجود العقل وحده يكفي. يصبح استخدام العقل ضروريًّا في بعض المواقف الخاصة. يمكن للمُرشد أن يساعد أصحاب العقول من خلال إرشادهم إلى الطريق. وبعض الناس لا يحتاجون إلى ذلك. وحتى لو حدث ذلك، فلن يضر. يجب على الشخص الذي سيقوم بعملية الإرشاد أن يكون لديه بعض الأدلة. ولأنني قدَّمتُ جميع الأدلة، فإن توجيهاتي صالحة. إذا قِيل إن الصواب أن يجتمع المسلمون



على فكرة معينة، وإن كلامي الذي دحض أدلة مخالفيهم ليس صحيحًا، فقد اجتمع المسلمون على خطأ". وقد نقل حسن الصباح مذهبه في التعليم مباشرة بهذا القول (الجويني، 1999: 539 -538).

وقد لخَّص حسن الصباح عقيدة التعليم في رسالته المسماة (الفصول الأربعة). يقول الصباح في الفصل الأول: "لا يتم الحصول على المعلومات عن الله إلا من خلال العقل والتفكير أو من خلال تعليمات المعلم". وفي الفصل الثاني، يُطرح السؤال التالي: "هل يكفي الشعور بالحاجة إلى اللجوء إلى المرشد أو المعلم لأول مرة والتمسك بأي منهما، أم أن من الضروري اختيارَ معلِّم حقيقي؟". بمعنى آخر: "هل بعد الحاجة إلى التعليم، يصبح من المقبول أن يكون لكلِّ معلم سلطة تقديم تعليمات، أم أن المعلم الصادق فقط هو الذي يتمتع بهذه السلطة؟ ومن قال إنه يصلح كل معلِّم ما ساغ له الإنكار على معلم غيره. وإذا أنكر فقد سلَّم أنه لا بد من معلم صادق معتمد".

وفي الفصل الثالث، يكشف حسن الصباح عن ضرورة وجود مرشد، ويطلب من الناس العثور على هذا المرشد في أول فرصة والاعتراف به كمعلم. ويسأل: "هل من الممكن التعليم على يد رجل مجهول الهوية الحقيقية وغير معروف بالنزاهة؟". وفي الفصل الرابع، يوضح حسن الصباح أن البشرية بشكل عام تتكون من قسمَين كبيرَين. الفريق الأول يقول بضرورة وجود معلم صادق يمكنهم من



معرفة الحق ويتعيَّن معرفة هذا المعلم أولًا، ثم التعلم منه. أما الفريق الثاني فإنه يأخذ العلوم أحيانًا عن طريق العقل والتفكير، وأحيانًا عن طريق معلم أو عدة معلمين.

ومن ناحية أخرى، فإن حسن الصباح، الذي أعطى هوية جديدة للإسماعيلية من خلال الجمع بين الدعوة الجديدة وعقيدة التعليم، قد أنشأ نظامًا سياسيًّا. ومن أجل تحقيق هدفه، كان يعبر عن آرائه بطريقة جذابة للجهلاء والفقراء وغير الراضين عن الإدارة الحالية. وقد حاول جمع المؤيدين له من بين القبائل والقرويين، وبعد ذلك بين أهل المدينة والحرفيين، وحتى من رجال الدولة، وخلق لنفسه طريقًا جديدًا من خلال تسييس الدين.

وفي ظلِّ غياب الأئمة النزاريين الذين اختبؤوا بعد وفاة نزار عام 1095، اعتُبر حسن صباح وأول خليفتَين له أعظم قادة للنزاريين. وقُبلت الدعوة الجديدة التي بدأها حسن الصباح كتشكيلٍ جديد من قبل الآخرين، وقام ببدء مهمة دينية وسياسية جديدة، ودعم أيضًا عمله فكريًّا. وقد انعكست هذه الحركة الجديدة للإسماعيليين النزاريين في تعاليمهم العقائدية. لقد أكَّد حسن الصباح بمذهبه التعليمي أن البشرية بحاجة إلى قائد مقدس، ومعلم، وبسلسلة من الاقتراحات الجديدة، يخلص إلى أن الشخص الشرعي الوحيد لهداية البشرية لا يمكن إلا أن يكون إمام الإسماعيليين، وفي أثناء تشكيل أساس الفكر النزاري، شكَّل الأساس الفكري للدعاية أيضًا.



قادة آلموت وشبكة الدعاية

قام حسن الصباح بتسييس الدين ومَنهجة الاغتيالات بفكرة إنقاذ العالم من الحكام غير الشرعيين، وأصبحت هذه الفكرة وسيلة الدعاية له ولخُلفائه. لم يكن هناك سوى سبب واحد لعشرات الاغتيالات، وهو هدم البنية الأقوى منه. فبدلًا من القتال في الميادين ضد إمبراطوريات عظيمة (السلاجقة والعباسيين وغيرهم)، فإنه وقف ضدها. اختار الصباح خطة تدمير هذه الإمبراطوريات من الداخل بعمليات الاغتيالات واحدة تلو الأخرى، وكان لها تأثير كبير داخل الدولة والمجتمع. ومن خلال دعايته المكثفة، سواء في البعد الفكري أو من خلال أعماله الدموية، تمكن الصباح من إحداث تأثيرات خطيرة في مناطق إيران والعراق وسورية.

قام حسن الصباح بدعايته بشكل مخطط وممنهج، وكان لديه أسلوبه الخاص في حشد الأنصار والعمل السياسي والاغتيالات والدفاع والتوسع في المنطقة. ولأن حسن الصباح كان يعرف جيدًا بنية الدولة السلجوقية والجوانب الجيدة والسيئة لرجال الدولة، فقد نجح للغاية في الكشف عن طريقة خاصة وجديدة ينفرد بها. فنَقل نضاله وقضيته إلى الأراضي السلجوقية.

اختار حسن الصباح آلموت مركزًا دعائيًا له، وقد تمكن - وهو الذي جاء إلى قزوين بموافقة السلطان ملكشاه - من



إدخال بعض عملائه إلى القلعة التي كانت تحت سيطرة المهدي، وهو من نسل الحسين. في هذه الأثناء، تصرَّف المهدي، الذي لاحظ أن عملاء حسن الصباح يحاولون دعوته إلى الإسماعيلية، وكأنه قد قَبِل الدعوة الإسماعيلية حتى لا يصطدم برجال الصباح منذ البداية، وبعد أن أدرك اعتناقهم للإسماعيلية، طردهم جميعًا، وأعلن أن قلعة آلموت ملك للسلطان وأغلق أبواب القلعة. قام حسن الصباح الذي جاء إلى قزوين بجذب بعض الجنود في قلعة آلموت إلى جانبه وأدخل بعض عملائه إلى القلعة. وبعد أن قام بجميع الاستعدادات، دخل سرًّا إلى قلعة آلموت وعاش فيها فترة تحت اسم دهُّودا، مُخفيًا هويته. وعندما أدرك المهدي أن معظم الجنود من حوله من الإسماعيليين، لم يبقَ لديه ما يفعله في مواجهة الفخ الذي وقع فيه عندما عرف هوية حسن الصباح الحقيقية.

وبعد عدد من المفاوضات، طلب حسن الصباح من المهدي أن يخرج من القلعة بعد أن أعطاه ثلاثة آلاف دينار ثمنًا لآلموت وسمح له بمغادرة القلعة. اضطر المهدي اليائس إلى قبول الاتفاقية مقابل ثلاثة آلاف دينار (1090) وأخذ السند المكتوب باسم الزعيم مظفر، الإسماعيلي السري الذي سيكون الحاكم المستقبلي لقلعة دمغان، وذهب إلى مظفر وهو غير مصدق أنه سيحصل على المال، لكنه تفاجأ بشدة عندما أخذ حقه كاملًا.

ومن ناحية أخرى، واصل حسن الصباح دعايته بعد



شعوره بالارتياح بسبب حصوله على قاعدة صلبة ومركز مهم يمكن من خلاله تحقيق خططه، وأرسل رسله إلى الاتجاهات الأربعة.

كانت قلعة آلموت من أنسب الأماكن لحسن الصباح والإسماعيليين، وكانت محصنة بشكل جيد. وخلال العملية الدعائية، استولوا على عدد من القلاع في إيران والعراق وسورية دون قتال، إما عن طريق شرائها أو إقناع قادة القلعة. وفي أثناء عملية إعداد التنظيم، أعطى حسن الصباح وخلفاؤه أهمية كبيرة للسرية، ووضعوا داعيًا في كلِّ قلعة. كان واجبهم الأساسي هو ضمان تحصين القلاع التي استولوا عليها ومواصلة شبكة الدعاية. حصل الصباح على دعم جديد بالاستيلاء على هذه القلاع، خاصة من الدعاة المهمين مثل مظفر، وكِيا بُزُرك أُميد، وابن عطاش. وكان الصباح ودعاته يكتسبون أحيانًا ثقة سكان القلعة وحراسها، ويتسلَّلون إلى القلعة، ثم يتخذون الإجراءات وفقًا للوضع بداخلها. وقد تمكنوا من الاستيلاء على القلاع من خلال مؤامرات مختلفة. مثلًا، تم الاستيلاء على قلعة جيردكوه، التي كانت في موقع استراتيجي مهم بالنسبة للنزاريين، بنفس المؤامرات التي تم الاستيلاء بها على قلعة آلموت (1164). وقد تسلل مظفر، حاكم دمغان، الذي اعتنق الإسماعيلية عن طريق ابن عطاش، سرًّا إلى القلعة. تنكر مظفر بزي أمير وطلب من الأمير السلجوقي إقناع السلطان بطلب قلعة جيردكوه وتعيينه قائدًا للقلعة هناك.



قام مظفر، الذي عينته الإدارة السلجوقية في القلعة، بإصلاح القلعة وتحصينها وملئها بالأشياء والمؤن الثمينة. وحالما اكتملت كافة استعداداته، أعلن فورًا أنه إسماعيلي وحكم القلعة نيابة عن النزاريين لمدة أربعين عامًا.

كان أسلوب الإدارة في التنظيم النزاري الإسماعيلي، الذي أسسه حسن الصباح، يعتمد على التسلسل القيادي. وكانت آلية اتخاذ القرار تعمل من الأعلى إلى الأسفل. وكان أعضاء كل رتبة ملزمين بأداء الواجبات التي كانوا مسؤولين عنها فقط. ولأن المهام الموكلة تعمل بتسلسل قيادي بين الوحدات، فقد طُوِّر عنصر اتخاذ إجراءات الرقابة والتدقيق. ولم يكن هناك شيء يُدعى الترقِّي في مستويات الإدارة داخل الهيكل الهرمي. لأن التفاني الديني كان في المقدمة. وهذا ما مكَّن التنظيم من الاستمرار والبقاء لفترة طويلة.

كان الاستقرار غير معتاد في الدول الصغيرة الأخرى أو في الهياكل التنظيمية في العالم الإسلامي في تلك الفترة. وفي واقع الأمر، بهذه الطريقة، تمكَّن معظم قادة آلموت من البقاء في السلطة لفترة طويلة، وحتى الفترة الأخيرة، لم يكن هناك صراع حول من سيكون الوريث بعد وفاة الصباح، سواء أكان داعيًا أم حجة أم إمامًا. وقد تمت مراقبة التغييرات والتطورات داخل التنظيم من قِبل أعلى المستويات وبُذلت الجهود لإبقائها تحت السيطرة، وإعطاء الأولوية للانضباط. وكان الغرض الأساسي من الهيكل



التنظيمي الهرمي القائم هو ضمان النزاهة في الدعوة الجديدة والانتشار بقوة وسرعة إلى مناطق واسعة.

وكان نظام التعليم في الهيكل التنظيمي الذي أنشأه حسن الصباح، يعتمد على التسلسل الهرمي بين المعلم والطالب أيضًا. وبدعوته الجديدة، اتبع حسن الصباح مسارًا مختلفًا عن الإسماعيليين الآخرين سواء في الهيكل التنظيمي أو في نشر الدعوة. وقد حدَّد الرتب حسب الواجب والمهمة. وصنَّف حسن الصباح نفسه على أنه رئيس الدعوة في هذا التصنيف. كان يُلقب بـ(شيخ الجبل) في المصادر الغربية. ويستخدم مؤرخو الحملات الصليبية هذا اللقب مع المعلم الكبير للفرع السوري من الإسماعيليين النزاريين، وهو راشد الدين سنان.

وفي الدرجة الثانية، يأتي الدعاة الكبار، وهم قليلو العدد. وكان أعضاء الدرجة الثالثة يدرسون أولًا في المدرسة بالقاهرة ثم يأتون إلى آلموت ليتعلموا أسرار الدعوة. لقد كانوا العناصر الأساسية التي قامت بالدعاية للتنظيم وضمنت انتشار الإسماعيلية. ويقسمون مجموعات. وعليهم الخضوع لتدريب مخطط له حتى يتمكنوا من الإجابة بسهولة عن الأسئلة المطروحة، وأن يكونوا أشخاصًا مثاليين يعرفون كيفية التنظيم الجيد، وأن يتمتعوا بفضائل أخلاقية ودينية، ويجب احترامهم وعدم جذب الانتباه في المجتمعات التي يدخلونها.

بدأت الدعاية النزارية تدريجيًّا بين الجماهير في المناطق



الجبلية، للذين عرفوا الإسلام حديثًا بعد الزرادشتية، وكانت معتقداتهم الدينية ضعيفة. ثم انتقلت هذه الدعاية من المناطق الجبلية إلى المدن مستفيدة من فجوة السلطة المركزية خلال صراعات العرش في الإدارة السلجوقية، وخاصة في عهد السلطان بركياروق والسلطان محمد تابار.

لقد أنشأ الإسماعيليون النزاريون شبكة دعاية واسعة عن طريق إرسال دعاة مدربين إلى المدن، وطلبوا منهم شرح قضيتهم للجمهور. وحتى عندما نجح بركياروق، الذي انتصر في معارك العرش الدموية، وصعد إلى العرش السلجوقي (1092- 1104)، استمر في القتال مع أخيه محمد تابار. وبينما كانت دولة السلاجقة تشهد صراعًا داخليًّا، عمل النزاريون دون توقف، وحولوا آلموت إلى حصن منيع يمكن أن يصمد أمام حصارات لأجل غير مسمى، ومن ناحية أخرى تمكنوا من مواصلة نشاطهم بطريقة منظمة للغاية، وخاصة في منطقة رودبار، واستحوذوا على قلاع جديدة مثل لاماسار وزاد عددهم وقوتهم.

من ناحية أخرى، لم يتمكن بركياروق من مواجهة الإسماعيليين بسبب قضايا الدولة، واضطر إلى أن يغضَّ الطرف عنهم على مضض. وبينما كان الإسماعيليون يرسلون دعاة نشطين إلى الأراضي السلجوقية ويؤثرون على الجهلة منهم، بدؤوا من ناحية أخرى في قتل الذين يعارضون معتقداتهم بالخناجر عبر الفدائيين. وفي البيئة الفوضوية لهذه الحرب الأهلية، التي قاتلت فيها جيوش



السلاجقة بعضها البعض، تمكن الإسماعيليون من قلب الوضع لصالحهم وتطوير قوتهم. لقد استولوا فعلًا على عدد من القلاع في ديلم إلى جانب آلموت، وعدد من المناطق في كوهستان. وقد استفادوا من الاضطرابات داخل الدولة، واستولوا على قلعتَي منصور كوه ومهرين في شمال دامغان، وقلعة أوستونافند في منطقة دماوند وامتدوا إلى الأجزاء الوسطى والشرقية غرب سلسلة جبال ألبرز.

وفي وقت لاحق، انتشروا في سلسلة جبال زاغروس، وخاصة المنطقة الحدودية بين ولايتي خوزستان وفارس في جنوب غرب إيران. وذهبوا أبعد من ذلك، فلم يكتفوا بالاحتفاظ بعدد من القلاع في رودبار وكوميس وكوهستان وغيرها من المناطق الجبلية، بل نشروا تنظيمهم في عدد من المدن وتدخلوا بشكل مباشر في شؤون السلاجقة. واعتمادًا على هذه النجاحات، استولوا على قلعة شاه ديز في أصفهان، مركز السلاجقة عن طريق عبد الملك بن العطّاش.

لقد بذل النزاريون جهدًا لنشر دعايتهم الفكرية في مختلف المناطق وشرح قضيتهم لأهالي كلِّ منطقة، ولهذا الغرض أنشؤوا شبكة دعاية واسعة. سافر الدعاة بلا كلل على نطاق واسع في المناطق التي حددوها ونشروا دعايتهم فيها. ويُعدّ الداعي الإسماعيلي ناصر خسرو، المعروف بعمله (سفر نامه)، مثالًا مهمًّا للداعي الذي قام بالدعاية الإسماعيلية في مناطق مثل الحجاز ومصر وسورية وفلسطين وإيران



والعراق. وإضافة إلى ذلك، قام الفدائيون، وهم القوة العسكرية المهمة للنزاريين باغتيال رجال دولة مهمين، وبثوا الرعب في قلوب إدارة الدولة والناس، وخطّطوا لإحداث تأثير كبير وتوسيع الجوانب السياسية للدعاية، وقد نجحوا في هذا.

ومع ذلك، فبينما كان حسن الصباح وخلفاؤه الأوائل يؤسسون لقب (دليل الإمام) من الناحية المذهبية، بدأت عملية دعاية جديدة بعد عدم وصول الإمام الذي توقعه الإسماعيليون النزاريون؛ لأن النزاريين واجهوا مشكلات خطيرة في تحديد أئمتهم بعد الانفصال عن الفاطميين. وعلى الرغم من أن مصادر مختلفة ذكرت أن نزار بن المستنصر، بعد وفاته، كان له أبناء من خلفه، فإنّ أحدا منهم لم يدّعِ أنه الإمام، ما أدى إلى بداية جديدة، وجرّ الدعاية والقضية إلى مصير غامض. وفي الواقع، فإن حسن الصباح وخلَفَيه الأولَين، اللذين توليا القضية بعد وفاة نزار، واصلا القضية بصفة دليل الإمام. وبدأ المجتمع النزاري ينتظر اسم الإمام المنتظر الذي سيظهر في المستقبل. غير أن هذا لم يتم في عهد حسن الصباح ولا في عهد خَليفتَيه الأوَّلَين، وبعد عدم وصول الإمام المنتظر وانتهاء عملية التقية على يد حسن بن محمد بزرك أوميد (حسن الثاني)، بدأت مرحلة جديدة.

قام حسن الثاني، سيد آلموت، بإعلان القيامة بعد وقت قصير من وصوله إلى السلطة، وغيَّر عقيدة التعليم التي



بدأها حسن الصباح (1166 -1162) وأضاف إليها بُعداً جديدًا. وفي منطقة أسفل آلموت، وعلى خلاف القواعد الإسلامية، بنى مسجدًا عكس اتجاه القبلة (في شهر رمضان عام 1164)، وأمر بنصب منبر في منطقة العبادة أمام قلعة آلموت ورُفعت أعلام كبيرة بالألوان الأبيض والأحمر والأصفر والأخضر.

وفي السابع عشر من رمضان، جمع كلَّ أهل آلموت مع ممثلين عن المناطق الأخرى في منطقة العبادة. وجلس النزاريون من رودبار والديلم أمام المنبر، وعلى اليمين جلس النزاريون من خراسان وكوهستان، وعلى اليسار جلس أهالي غرب إيران ووسطها. ونزل حسن الثاني مرتديًا ثوبًا أبيض وعمامة، واعتلى المنبر وسلَّم على الحشد، ثم وقف وأخرج سيفه، وبدأ يقرأ بصوت عالٍ رسالة قال إنها أُرسلت إليه من الإمام النزاري الذي كانت لديه تعليمات جديدة للأتباع في تلك الفترة.

ووقف محمد بوستي، الذي كان بجانبه، وترجم الخطبة التي كان يقرؤها باللغة العربية إلى الفارسية. وقد خطب الحسن الثاني هذه الخطبة في الجنِّ والإنس والملائكة سكان الكون، وأعلن أنه تلقى رسالة من الإمام السري الذي أعطاه تعليمات جديدة، قائلًا: "إن إمام الزمان قد أرسل إليكم بركاته وشملكم برحمته. وقد سمَّاكم خدمه المصطفين ورفع عنكم أعباء الشريعة وأوصلكم إلى القيامة" (رشيد الدين، 1338: 165 -164). وبعد أن قال ذلك، نزل



عن المنبر وصلّى صلاة العيد ركعتَين.

وبعد أن جُهِّزت المائدة وتناولوا الإفطار، حضر العازفون وبدؤوا يحتفلون وقد أعلنوا السابع عشر من رمضان عيد القيامة. في ذلك اليوم، شربوا النبيذ واستمتعوا بالموسيقى. ثم أُرسل رجل إلى كوهستان ليجمع الناس حول الإشارة التي يسمونها الدعوة إلى يوم القيامة. قرأ الرئيس مظفر، الذي حكم كوهستان، الخطبة على أهل كوهستان بعد تغيير النص قليلًا. قال مظفر: "قبل سنوات، أرسل المستنصر رسولًا إلى آلموت وأخبره أن الله تعالى لا يزال له خليفة في الأرض وأن للخليفة نائبًا، وأن الخليفة هو المستنصر ونائبه حسن الصباح، ومن يتبع حسن الصباح يعتبر تابعًا له. الآن أنا الحسن الثاني خليفة الله في الأرض ونائبي الرئيس مظفر. وعلى كل فرد أن يتبع أوامره ويقبل الدين الذي يدعو إليه" (الجويني، 1999: 553). الآن حلّت عقيدة إعلان القيامة محلَّ عقيدة التعليم كمركز للفكر النزاري. ومع ذلك، وعلى عكس التعليم السابق، فإن عقيدة إعلان القيامة لم تخلق أي تأثير أو صدى في العالم الخارجي. في الواقع، كانت هذه الاحتفالات الجماهيرية التي أُقيمت في آلموت ومؤمن آباد، أي إعلان يوم القيامة، بمثابة ثورة دينية حقيقية.

وكان حسن الثاني، الذي ذكره الإسماعيليون بـ"على ذكره السلام" قد جاء بعقيدة إعلان القيامة. وبهذه العقيدة أُعلن لأعضاء الطائفة في رودبار وكوهستان والأراضي



الإسماعيلية الأخرى أن يوم القيامة الذي طال انتظاره قد جاء، حيث سيتم محاكمة الناس وإرسالهم إلى الجنة أو الجحيم إلى الأبد. لكن مع هذه العقيدة المبنية على التأويل الإسماعيلي، خضعت القيامة لتفسير رمزي وروحي. وهكذا، فإن المؤمنين الحقيقيين، الذين ينتمون إلى الإسماعيلية النزارية، أصبح لديهم الآن القدرة على فهم الحقيقة أو الواقع الروحي، أي جوهر الشرائع الدينية. وبذلك تحققت لهم الجنة في الدنيا.

وفي ما يلي تعليق فرهاد دفتري بشأن إعلان يوم القيامة. ووفقًا له، أعاد الإسماعيليون تفسير القيامة من جديد بأسلوب باطني، وكانت القيامة هي اليوم الذي ستنكشف فيه الحقيقة التي أظهرها الإمام النزاري ضمنًا، والقدرة على رؤية الواقع الإلهي، والحقائق الثابتة المخفية وراء وصايا الدين، التي لم تكن متاحة إلا للنزاريين في هذه الحياة، ولهذا مُنحت لهم الجنة على هذه الأرض. ومن ناحية أخرى، فإن كلَّ الناس من غير الإسماعيليين كانوا في الجحيم الأبدي ولم يكونوا موجودين روحيًّا فعليًّا. هكذا، ومع عقيدة إعلان القيامة الجديدة، كان النزاريون في الجنة حين كانوا على الأرض.

من ناحية أخرى، كانوا يتعلمون أنه مع إعلان القيامة، سيتوجه الناس إلى الله بكلِّ كيانهم، وبالتالي يجب التخلي عن أشكال عبادتهم المعتادة. مثلًا، لم تعد الصلوات الخمس التي تتطلبها الشريعة ضرورية، ففي يوم القيامة،



سيكون الناس دائمًا مع الله بقلوبهم، وكانت هذه هي الصلاة الحقيقية. كما تم إبطال عبادات إسلامية أخرى من خلال التأويل. بعد هذا الإعلان عن يوم القيامة، بدأ قبول حسن وأحفاده كأئمة من أحفاد نزار. وفي الواقع لم يكن أمام المجتمع النزاري وحاكمه خيار آخر. فقد أثار عدم قدوم الإمام المنتظر في عهد حسن الصباح وخليفته الأول، اضطرابات كثيرة في المجتمع. لذلك، كان لا بد من إنهاء عملية التقية في أسرع وقت ممكن، وظهور أئمة من سلالة نزار.

وقد ادعى علانية نور الدين محمد، تمامًا مثل والده، وبشكل كامل، أنه الإمام، واستمرارًا لسياسة والده، كرَّس حياته كلها لتنظيم عقيدة إعلان القيامة. ولهذا السبب فقد ادَّعى أولًا بشكل واضح وكامل الإمامة لأبيه ولنفسه. وجعل الإمام العنصر المركزي في عقيدة يوم القيامة. هكذا، وبقبول حسن وابنه نور الدين محمد إمامين من سلالة نزار، انتهت فترة تخفي النزاريين، التي كان فيها الإمام سريًّا وغير معروف إلا للدعاة ولحجة آلموت في بداية الحركة. وهكذا دخلت الجماعة الإسماعيلية النزارية عصر إعلان القيامة. ومع ذلك، كان من الصعب قبول عقيدة حسن الثاني حول إعلان القيامة، وخاصة مسألة إلغاء القواعد الدينية، من قِبل بعض الجماعات الإسماعيلية النزارية، وغادر عدد من الناس كوهستان واستقروا في خراسان. وقد حاول بعض مَن بقي في كوهستان الامتثال



لأوامر الشرع ونواهيه سرًّا كلما أُتيحت لهم الفرصة.

وخلال الفترة العقائدية للدعاية، بدأت فترة التخفي بعد إعلان القيامة. فبينما كان سيد آلموت نور الدين محمد على قيد الحياة، بدأ ابنه جلال الدين في التخطيط لمعارضة عقيدة أبيه، وبعد وفاة نور الدين عارض ابنه عقيدة إعلان القيامة، وأعلن في كلِّ مكان أنه مسلم سني، حتى إنه أرسل سفراء إلى الخليفة العباسي الناصر، ومحمد خوارزمشاه وغيرهم من حكام السنة لتأكيد تحوله إلى المذهب السني، وأرسل أمه إلى الحج. غير أن عملية التحول إلى المذهب السني كانت صعبة للغاية؛ لأن جلال الدين حسن أمضى الفترات الأولى من حكمه في إقناع العالم السني بأنه يرفض معتقدات والده القديمة وأنه يقبل الشريعة بشكلها السني. ومن خلال بناء المساجد والحمامات في جميع أنحاء القرى الإسماعيلية، حاول إثبات أن هذه الأماكن كانت جزءًا من العقيدة الإسلامية السنية، حتى إنه جلب فقهاء السنة من العراق وخراسان لتعليم قومه. لقد حصد ثمار كل مبادراته، ولو بصعوبة، وقبل الخليفة الناصر ببغداد مذهب جلال الدين حسن وقومه وأقره رسميًّا بالمرسوم الذي نشره عام 1211. من المحتمل أن الفهم الجديد الذي جاء به جلال الدين حسن قد تبنته جميع الطوائف الإسماعيلية النزارية في رودبار وكوهستان وسورية بوصفه المذهب الشافعي. في هذه الأثناء، كان أهل قزوين، الذين كانوا ملتزمين بالإسلام بشدة،



متشككين في حقيقة تقرُّب جلال الدين حسن وقومه من السنة، ولهذا السبب أرسلوا علماء الدين من قزوين إلى مكتبة آلموت لتفقُّدها. وقام علماء الدين الذين ذهبوا إلى القلعة بفصل الكتب التي كتبها حسن الصباح ووالد جلال الدين، التي كانت عن الطائفة الإسماعيلية ومخالفة للعقيدة الإسلامية. وفي وقت لاحق، أُحرقت جميع هذه الكتب أمام أهالي قزوين، وبالتالي قبلت السلطات السنية سياسة جلال الدين الجديدة. وفي الرسالة التي بعث بها جلال الدين إلى المرجعيات السنية، لم يغفل عن لعن أسلافه ومَن كتبوا هذه الدعاية، حتى إنه كتب بعد أسماء أبيه وجده، عبارات مثل "ملأ الله قبورهم نارًا".

بعد وفاة جلال الدين، أصبح ابنه علاء الدين إمامًا في سنٍّ مبكرة. وبمجرد تولي إدارة البلاد بناءً على وصية والده، اتهم أقارب الوزير الذي كان معلمه، وأخواتِه وزوجاته وأعيانه، بتسميم جلال الدين، فقتل بعضهم وأحرق بعضهم الآخر. وعندما بدأ علاء الدين، الذي كان يعدُّ مرشد الشؤون الدينية والدنيوية، في قضاء الوقت في اللعب ومطاردة الإبل والحيوانات مثل الأطفال في مثل عمره، بدأت الأمور تتعقد وظهرت عقيدة يوم القيامة مرة أخرى. خلال هذه الفترة، تخلَّى الإسماعيليون، الذين لم يقرروا قط اعتناق المذهب السني، تدريجيًّا عن الممارسات السنية وعادوا إلى هوياتهم الإسماعيلية، وبدأت عقيدة القيامة في الانتعاش من جديد. وإلى جانب ذلك، بدؤوا



يتصرفون بمنطق أن ما قاله الإمام صحيح، بغض النظر عن عمره، ولا يمكن عصيان أوامره. وقد حقق علاء الدين، الذي كان لا يزال صغيرًا للغاية، كلَّ ما يريد، وبالتالي ظلت إدارة قلعة آلموت عاجزة. ولهذا السبب قال زعماء الإسماعيلية: "سواء أكان الإمام طفلًا أم مُسنًّا أم صغيرًا، فلا فرق. إنه يقول ويفعل الصواب في كل موقف". لقد شرَّعوا الوضع من خلال هذا البيان (رشيد الدين، 1338: 564 -563).

ومع ذلك، وعلى الرغم من استمرار سياسة الشرعية، فإنّ مرض علاء الدين الذي ظهر في السنوات التالية هزَّ إدارة قلعة آلموت مرة أخرى. وبعد أن حكم علاء الدين ست سنوات، حاول طبيب في القلعة علاجه دون أن يطلب من أحد، ونتيجة لأخذ كمية كبيرة من الدم منه، بدأ يرى أشياء خيالية. ولم يتمكن أحد من إيجاد علاج لمرضه، ولم يجرؤ الأطباء هناك على القول إنه مصاب بالمالنخوليا ويعاني مرضا آخر. والحقيقة أن تشخيصهم كان بسبب نقص في المعرفة، لكنهم أبقوا ذلك سرًّا لأنهم كانوا يخافون أن يُقتلوا إذا عبروا عن ذلك. هذا المرض، الذي لم يتم العثور على علاج له، تطور وأدى إلى جنون علاء الدين. وعندما تفاقم المرض، قيَّدوه بالسلاسل. يعتقد الإسماعيليون أن كل هذا بأمر من الله، وأن كلَّ ما يقوله مستوحى من الإلهام الإلهي، وأنه لا يوجد أي خطأ في أفكاره وكلماته. بدأ علاء الدين، الذي آمن بهذه الفكرة،



بتقديم أخبار من الماضي والمستقبل. والحقيقة أن ما قاله كان هراء، لكنه كان يغضب من تصحيح الآخرين ممن حوله لكلماته. ولقلة خبرته وجهله ونفاد صبره وسوء مزاجه لم يكن لأحد أن يعارض ما قاله، لأنهم، إذا قالوا ذلك، سوف يلقون العذاب حتى الموت.

وعلى الرغم من وجود عدد من المشكلات في الإدارة بسبب علاء الدين، فإنّ موجة جديدة من الإسماعيلية بدأت في الانتشار خلال السنوات الأولى من حكمه. وبينما حاول الخوارزميون الحفاظ على دولتهم، بعد أن هزَّتهم هجمات المغول، واصل الإسماعيليون سياستهم التوسعية. وخلال هذه الفترة، بعد الاستيلاء على مدينة دامغان، اتخذوا أيضًا إجراءات للاستيلاء على مدينة الري. انتهج الإسماعيليون، الذين لم يتوقف شغفهم بتوسيع أراضيهم، سياسة عدم الاعتداء المتبادل مع المغول، واستولوا على مدينة دامغان الواقعة بالقرب من جريدكوه، واستعادوا بعض القلاع في كوميس. كما أنشؤوا قواعد عسكرية وخلال السنوات الست الأولى من حكم علاء الدين، وبينما قام الإسماعيليون بتوسيع الأراضي الإسماعيلية في إيران، دخلوا أيضاً في صراع مع الخوارزميين استمر حتى الهزيمة الشديدة التي لحقت بالخوارزمشاه جلال الدين على يد المغول عام 1231 ووفاته الغامضة على يد الأكراد. لقد خلقت هذه الفترة علاقة معقدة مليئة بالصراعات والدبلوماسية والقتل بين



الإسماعيليين والخوارزميين، الذين حلّوا محلَّ السلاجقة، أعداء الإسماعيليين اللدودين.

ومع اختفاء الخوارزمشاه، واجه الإسماعيليون تهديد المغول الذين غزوا إيران بأكملها تحت حكم أوقطاي الذي حلَّ محل جنكيز خان. وفي هذه الفترة، قام الإسماعيليون ببعض المحاولات للتوصل إلى اتفاق مع المغول، وأرسلوا الإمام بدر الدين جمال إلى القصر المغولي، لكن لم يتم التوصل إلى نتائج. وفي ما بعد، تواصلوا مع الصليبيين للتوصل إلى اتفاق مبدئي ضد المغول، لكنهم لم يتمكنوا من تحقيق نتائج لأن الصليبيين كانت لهم علاقات أوثق مع المغول في ذلك الوقت.

وبعد أن غادر هولاكو منغوليا وجاء إلى إيران عام 1253، بدأ المغول بزيادة الضغط على الإسماعيليين النزاريين. وقد أحدث هذا الضغط احتكاكات داخلية بين القيادة النزارية، خاصة بين علاء الدين وكبار مستشاريه الذين فضّلوا الاستسلام.

وبينما دفع هذا الوضع علاء الدين إلى المقاومة، فإنه دفعه تدريجيًّا إلى قطع علاقاته مع القادة النزاريين. في هذه الأثناء، بدأ ركن الدين (1257 -1255)، الذي عينه خلفًا له، في معارضة والده عدة مرات بسبب المغول. فكَّر ركن الدين في أن جيش المغول سيهجم على القلعة بسبب سلوك والده غير اللائق، وأن والده لم يأخذ هذه المهمة على محمل الجد، وإذا أصبح سلطانًا، فإنه سيرسل



مبعوثين إلى حضرة سلطان العالم ويرسل العبيد إلى بابه، ليعلن طاعته وعبوديته له.

وعندما استمرت التهديدات والهجمات والعقوبات من المغول، ابتعد ركن الدين عن آلموت، واستولى على قلعة سورية وقلعتي آلموت وميمون ديز وإحدى قلاع رودبار المليئة بالكنوز والمؤن، واستعد للتمرد على والده مع الجنود الذين سيجمعهم من هناك. وسرعان ما أقسم بعض رجال الإدارة وعدد من الجنود في قلعة آلموت، الذين سئموا ضغوطَ علاء الدين وقسوته، على البيعة لركن الدين. ووعد هؤلاء الأشخاص بأنهم سيكونون معه أينما ذهب، وسيحمونه من رجال أبيه وجنوده، لكنهم لن يفعلوا شيئًا ضد والده إذا هاجمه.

وبعد شهر من هذا الاتفاق، مرض ركن الدين وأصبح طريح الفراش وغير قادر على الحركة. وفي ذلك الوقت، بعد مقتل علاء الدين في كوخ بجوار حظائر الغنم في شيركوه، بالقرب من آلموت، تولى ركن الدين إدارة قلعة آلموت. وبحسب بعض الروايات، فإن علاء الدين قد فقد وعيه بعد شرب الخمر مع الأشخاص الذين كانوا بجواره في منزل مجاور لحظيرة أغنام مصنوعة من الخشب. وعندما استيقظ أصحابه في منتصف الليل وجدوا علاء الدين ميتًا وقد قُطعت رقبته بالفأس. كما أُصيب هندي وتركماني بجانبه. وعلى الرغم من أن ابن علاء الدين وزوجاته يتهمون عددًا قليلًا من الأشخاص بجريمة القتل، فإنه تم



الكشف لاحقًا عن القاتل. كان الشخص الذي ارتكب جريمة القتل هو حسن المازندراني، رجل علاء الدين، الذي كان معه ليلًا ونهارًا ويخبره بكلِّ أسراره. وعندما أخبر حسن المازندراني زوجته، عشيقة علاء الدين، بجريمة القتل التي ارتكبها، لم تخف المرأة جريمة القتل التي ارتكبها زوجها، وأخبرت ركن الدين بالموقف فورًا. بعد سماع هذه الأخبار، قتل ركن الدين فورًا حسن المازنداري وابنتَيه وابنه، وأُحرقت جثثهم.

قام ركن الدين، الذي تولى العرش بعد وفاة والده، بشنِّ عملية عسكرية لأول مرة غرب ديلم واستولى على قلعة بالقرب من حلحل. وبعد نهب المكان أرسل رسلًا إلى جيلان والدول المجاورة الأخرى ليعلن وفاة والده. وعلى عكس والده، كان ركن الدين يتعامل مع الناس بالحب ويحاول الانسجام معهم. لقد بذل جهوداً للتأكد من أن الناس في جميع الولايات الخاضعة لحكمه أصبحوا مسلمين ويعيشون آمنين. ثم بدأ بالتفاوض مع المغول وأرسل مبعوثًا إلى المغول في همدان يبلغهم باستسلامه. وردًّا عليه، ذكر الحاكم المغولي أن قوافل هولاكو تقترب وأنه من الأفضل له مغادرة القلعة ومقابلة هولاكو.

جاء الحاكم المغولي إلى جنوده إلى منطقة رودبار معًا. وتجمع جنود ركن الدين وأتباعه، الذين سمعوا بوصوله، بقمة جبل تقع في شمال شرق آلموت. لقد دخلوا في حرب كبيرة مع الجيش المغولي الذي بدأ في الصعود.



واضطر الجيش المغولي إلى التراجع لأن الجبل كان شديد الانحدار ومزدحمًا للغاية على الجانب الآخر، لكنهم في أثناء انسحابهم قتلوا القطعان التي صادفوها وأحرقوا المدن ونهبوها. في هذه الأثناء، كان ركن الدين يتفاوض مع الحاكم المغولي عبر مختلف الاتصالات والسفراء.

أرسل هولاكو مبعوثًا مرة أخرى إلى ركن الدين وأمره بالنزول من قلعة ميمون ديز. ومن أجل كسب الوقت حتى تساقط الثلوج في الخريف، نفذ ركن الدين تكتيكًا لكي يمر الوقت وطلب الرحمة حتى لا يهاجمه هولاكو. وافق على إرسال ابنه كرهينة مع 300 جندي وتدمير جميع القلاع. ووجد هولاكو طلبه مناسبًا، وأقام في عباس آباد لينتظر منه الوفاء بوعوده. وتوقف جنود هولاكو عن محاصرة القلاع. وعندما جاء الموعد المتفق عليه، أرسل ركن الدين صبيًّا يبلغ من العمر سبعة أعوام أو ثمانية، وكأنه ابنه، مع بعض رجال الدولة المحترمين.

عندما أدرك هولاكو أن الطفل المرسل ليس ابن ركن الدين، أرسل ركن الدين شقيقه مع ثلاثمائة جندي كرهينة للسلطان في الوقت الموعود. وفي أثناء قيامه بذلك، كان يأمل أن يطلق هولاكو سراح أولئك الذين أرسلهم سابقًا كرهائن ويبتعد عن تلك المنطقة. لكن الأمر لم يحدث بهذه الطريقة. أرسل هولاكو مبعوثًا إلى ركن الدين مع شقيقه وطلب منه تقوية القلاع والاستعداد للحرب إذا لم يحضر خلال خمسة أيام.



عاد المبعوث إلى هولاكو وأخبره باعتذارات ركن الدين المتناقضة، وأمر هولاكو الجنود بتضييق الحصار، ثم انطلق من بيشكيل دارا في عام 1256. اضطر ركن الدين اليائس إلى النزول من القلعة، وكان برفقته أحد أمراء القصر، وهو تمجان، وعدد قليل من الأشخاص، الذين كانوا مسؤولين عن حمايته. وأرسل ركن الدين رجالًا يثق بهم فهدموا نحو أربعين قصرًا. وبعد أن قدم ركن الدين هدية ثمينة من خزينته في قلعة ميمون ديز إلى هولاكو، قام بتوزيع الباقي، الذي دُهس في أثناء قدوم وذهاب الجنود، على رجال الدولة والجنود.

ثم أرسل هولاكو، الذي استولى على قلعة ميمون ديز، مبعوثًا إلى قائد آلموت وطلب منه الخضوع وقبول العبودية مثل ركن الدين. لكن بعد مماطلة القائد، ذهب الأمير بالاجاي إلى هناك مع عدد كبير من الجنود وأصدر مرسوم الحصار، واتخذ بالاجاي فورًا إجراءات لحصار القلعة من جهتَي اليمين واليسار. وقد أدرك أهل القلعة خطورة الوضع وأرسلوا رسلًا يطلبون الرحمة والشفاعة. وبواسطة ركن الدين، أمر هولاكو بتطبيق عقوبات خفيفة عليهم.

وفي الأول من ديسمبر 1256 خرج أهل القلعة ومعهم أغراضهم. وبعد ثلاثة أيام من هذه الحادثة، دخل الجنود المغول وأخذوا الأغراض التي لم يتمكن أصحابها من حملها، وأشعلوا النار في المنازل بأكملها.



بعد استسلام آلموت، لم يمتثل سكان قلعة لاماسار وجيردكوه لأوامر ركن الدين واستمروا في السيطرة على القلعة لفترة أطول. في هذه الأثناء، رأى ركن الدين، الذي كان أسيرًا عند هولاكو، أن الخدمات التي قدمها له هولاكو كانت صادقة، وقال له بشجاعة: "هذه الأيام التي أعيشها أُضيفت إلى حياتي بفضلك. طلبي منك أن تسمح لي أن أقضي هذه الأيام في سرور" (أبو الفرج، 1945: ص 562). سمح هولاكو بإعطائه بعض الذهب والفضة. وعندما وقع ركن الدين في حب إحدى المغوليات، سمح هولاكو لهذه الفتاة بالزواج منه. وزاد حب هولاكو لركن الدين مع الأبيات التي قالها ذات يوم وهو يشرب الخمر. وقد طلب ركن الدين ذات يوم الإذن بالذهاب إلى جوار منغو كاغان، وسمح له هولاكو بالذهاب، وطلب منه وهو في طريقه إيقاف الإسماعيليين في جيردكوه ولاماسار والاستيلاء على القلاع. لكن خلال الرحلة اختلف ركن الدين مع السفير المرافق له ودخل في شجار معه. وعندما وصل المبعوث إلى كاراكوروم بالقرب من منغو كاغان، قام بالتشهير بركن الدين دون علمه.

وقال منغو كاغان لركن الدين بعد أن تأثر بكلام المبعوث: "لقد أتيتَ من كلِّ هذا الطريق البعيد عبثًا. قَانوننا واضح. لقد أعلنت ولاءك، ولكن لماذا لم تدمر بعض القلاع؟ عُدْ فورًا إلى جيردكوه ولاماسار. لا يمكنك أن تأتي إلينا إلا عندما تهدم تلك القلاع" (رشيد الدين،



1338: 194). لكنه بعد أن أرسل ركن الدين، سحبه إلى مكان مهجور على الطريق وقتله. لاحقًا، ونتيجة للحوادث التي تسبب فيها الجنود الإسماعيليون، قُتل جميع الإسماعيليين من جنود المغول بأمر منغو خاقان. وكانت عائلة ركن الدين بأكملها في قزوين من بين القتلى، ولم يبقَ أي أثر من نسله. وفي هذه الأثناء، تعرض الإسماعيليون النزاريون الذين كانوا تحت المراقبة في إيران إلى مذبحة عامة. وفي قزوين، قامت عائلة حرشاه وأقاربه، وكذلك القائد المغولي أوتاجوتشينا في كوهستان، بمحاصرة الإسماعيليين من خلال دعوتهم إلى اجتماع كبير وذبحوا 12 ألف شخص منهم.

لم يتمكن السلاجقة ولا الخوارزميون من تدمير النظام الإسماعيلي الراسخ، الذي استمر 166 عامًا، حتى انهار عام 1256 تحت الهجوم الشديد للمغول. ونتيجة لهجمات المغول، تقلصوا وتفككوا مع مرور الوقت واختلطوا بالطوائف الأخرى كمجموعات غير مؤثرة. ودخل الإسماعيليون النزاريون، الذين تفرقوا بعد هجوم المغول، في عملية جديدة وخفية اضطروا فيها إلى العيش سرًّا في سورية وإيران وأفغانستان وآسيا الوسطى وجنوب آسيا.

لا ينبغي لنا أن ننكر مكانة الإسماعيليين النزاريين، الذين تأسسوا بقيادة حسن الصباح، في التاريخ الإسلامي. ولفترة طويلة، لعبوا الدور القيادي في فترة مضطربة في التاريخ الإسلامي والتركي. وعلى الرغم من فشلهم في تحقيق أهدافهم، فإنهم شكلوا تهديدًا سياسيًّا ودينيًّا



واجتماعيًّا خطيرًا للنظام القائم، وأصبحوا جزءًا من سلسلة دعاية مظلمة وشعبية للغاية. وبالتزام بعضهم تجاه بعض، وعاطفتهم، ومواقفهم العنيفة المخططة والمنظمة، وضعوا قضيتهم ضمن هيكل تنظيمي لم يسبق له مثيل قبلهم أو بعدهم. ومع ذلك، في مثل هذه الفترة الطويلة من الزمن، لم يتمكنوا من الاستيلاء على أي من المدن المهمة باستثناء بعض القلاع، ولم يحققوا النجاح الذي كانوا يأملون فيه في نضالهم.

خاض الإسماعيليون، الذين واصلوا أنشطتهم في أراضي السلاجقة الكبرى وحاولوا التمركز عبر الاستيلاء على القلاع المهمة، صراعات سياسية وعسكرية مع العديد من السلاطين السلاجقة في أوقات مختلفة. وقد اكتسبت الحركة الإسماعيلية التي تجلَّت بوضوح في عهد ملكشاه، قوة كبيرة، نتيجة الصراع على السلطة والاضطرابات في عهد السلطان بركياروق والسلطان محمد تابار. لم يتمكن أي سلطان سلجوقي عظيم من القضاء على الإسماعيليين بشكل كامل، لأنهم أصبحوا أقوى وأكثر انتشارًا بسبب العوامل الداخلية والخارجية التي عاشها السلطان سنجر، إلا أنهم تكبدوا خسائر فادحة متبادلة.

وكانت الحركة النزارية الإسماعيلية في الواقع حركة عسكرية بدأها حسن الصباح باستخدام المعتقدات الدينية للجهلة والفقراء وغير الراضين عن الحكومة الحالية، ثم استمرت في تسييس هذا الوضع. وقد أظهر الإسماعيليون



النزاريون نجاحًا مبهرًا في تنفيذ عمليات الاغتيال السياسي الفعالة والممنهجة.

وفي الأربعين سنة التي تلت وفاة حسن الصباح، استمر النمو الإقليمي لخلفائه في آلموت ومركزهم الأساسي منطقة رودبار وكوهستان، وتم إنشاء قلاع آمنة جديدة في ميمون ديز والمنصورة وسعدتكوه وغيرها من المناطق، والسيطرة على مناطق كثيرة من العراق وإيران، وامتدت دعوتهم إلى سورية.



صداقة حسن الصباح ونظام الملك وعمر الخيام

وردت العلاقة الأسطورية بين حسن الصباح والوزير السلجوقي نظام الملك والشاعر عمر الخيام في عدد من الأعمال والروايات الشعبية. وبحسب بعض هذه الروايات، فقد بدأ حسن الصباح ونظام الملك وعمر الخيام في تلقي الدروس معًا في شبابهم على يد الإمام الموفق النيسابوري في نيسابور، وتدريجيًّا توطدت صداقتهم. واتفقوا في أحد الأيام على أن مَن يصل منهم إلى منصب رفيع أولًا، يساعد أصدقاءه الآخرين. ومع مرور الوقت، أصبح نظام الملك وزيرًا، وتقدَّم عمر الخيام في العلوم. واصل عمر الخيام، الذي كان يحميه نظام الملك بموجب الاتفاقية، أبحاثه العلمية، وشارك حسن الصباح في الشؤون الإدارية إلى جانب نظام الملك. ومع مرور الوقت انهارت العلاقات بين حسن الصباح ونظام الملك بسبب الشؤون المالية للدولة، وكان حسن الصباح، الذي أراد أن يصبح وزيرًا، يشوه صورة نظام الملك في كلِّ فرصة، في عدة موضوعات، مثل سعر حجر المرمر الذي يُجلب من حلب، وموضوع تحديد ثروات الدولة السنوية. عندها اتهم أبو مسلم، أحد أقارب نظام الملك، حسن الصباح بالتعاون مع الدعاة المصريين. وفي أحد الأيام، قال عن حسن الصباح، ببصيرة عظيمة: "هذا الرجل سوف يقوم قريبًا بإخراج الضعفاء والعاجزين من الناس عن الطريق



الصحيح" (ابن الأثير، 1987: 260).

اضطر حسن الصباح إلى الهروب من القصر بعد أن حاول نظام الملك وأبو مسلم تشويه سمعته عند السلطان وإقصاءه. ذهب حسن الصباح إلى مصر، وأصبح داعيًا إسماعيليًّا هناك، وبعد عودته إلى إيران واستقراره في آلموت، بدأ الاغتيالات عن طريق الفدائيين للانتقام من نظام الملك والإدارة، وكان نظام الملك هو أول مَن أمر الصباح باغتياله. وبحسب فرهاد دفتري، المختص في تاريخ الإسماعيليين، فإن هذه القصة هي إحدى الأساطير المرتبطة بالإسماعيليين النزاريين، المعروفين باسم الحشاشين في أوروبا بالعصور الوسطى.

ويروي نظام الملك بنفسه القصة كما يلي: "في أحد الأيام، كنا ثلاثة شباب من تلاميذ هذا الإمام الذي اشتُهر بوصول طلابه إلى مناصب مهمة في الدولة، وتحدثنا في ما بيننا، وقلنا إنه إذا وصل أي واحد منا إلى منصب مهم في الدولة، فإنه سيأخذ أصدقاءَه إلى مناصب مهمة أيضًا، واتفقنا بحزم، ووعدنا بأننا سنعمل من أجل ذلك. وبعد فترة غادرتُ خراسان وأقمتُ في بلاد ما وراء النهر وغزنة وكابل. وأخيرًا أصبحت وزير ألب أرسلان. وفي هذه الأثناء، جاء عمر الخيام إليَّ، وتنفيذًا للوعد الذي قطعناه من قبل، أردت أن يكون شريكي في الوزارة. ولهذا السبب أوضحت للسلطان فضله وسلطانه وكفاءته. لقد جعلته يحظى بالثقة الكاملة. ولكن بما أنه فضَّل



العمل في العلم، فقد حصل على المبلغ المخصص له كل عام من دخل نيسابور. أما حسن الصباح، الذي لم ترد أخبار عنه في عهد ألب أرسلان، جاء إلى نيسابور في عهد ملكشاه. واستقبلتُه أحسن استقبال وقدمته إلى السلطان. وبما أنه كان رجلًا مخادعًا مثل والده، فقد نال بعد فترة ثقة السلطان وتولَّى الشؤون الإدارية. وبدأ ينفصل عني، متناسيًا صداقتنا التي كانت مستمرة منذ الطفولة. فبدأ يوجه إليَّ اتهامات مختلفة، إذ يأخذ خطأ صغيرًا لي ويعظِّمه ويرفعه إلى السلطان. وفي الفترة التي أُريد فيها تنظيم الموازنة العامة للدولة، حاول القيام بهذه المهمة في عُشر الوقت. وفي واقع الأمر، فقد أظهر الجدارة والسرعة في هذا الشأن. ومع ذلك، ولحسن الحظ، اضطر إلى الهرب وهو يشعر بالخجل لأنه لم يتمكن من شرح شكل الميزانية التي أعدها" (عدنان أديجوزيل، 2014، ص 209).

وقد ذُكرت هذه الروايات أول مرة من قِبل رشيد الدين فضل الله في كتابه بعنوان (جامع التواريخ). وبعد ذلك كررها عدد من المؤرخين الإيرانيين وتحولت إلى أسطورة. ومع ذلك، فقد وجد باحثون آخرون من العاملين في هذا الموضوع أن واقع طفولتهم وصدقاتهم في الدراسة غير متسق. لأنه، بحسب المصادر، لا يمكن لنظام الملك المولود عام 408 (1018) وحسن الصباح المتوفى عام 518 (1124) وعمر الخيام المتوفى عام 626 (1132) أن



يكونوا أصدقاء طفولة بسبب اختلاف أعمارهم.



الرسائل وأسطورة القفز إلى الموت

إحدى الأساطير الإسماعيلية النزارية هي القفز من القلعة إلى الموت. وفي أثناء حديث المؤرخ الألماني أرنولد لوبيك عن اغتيال المركيز كونراد دي مونفيرا، ملك بيت القدس، في صور في 28 أبريل 1192، تطرق أيضًا إلى تاريخ النزاريين، حتى إنه استخدم لقب (الشيخ) في كتابه الذي أكد فيه أن ما قاله قد يبدو سخيفًا، لكنه كتبه بناء على قصص الثقات وينقل ما سمعه عنه على النحو التالي: "لقد استطاع هذا الشيخ بطرقه السحرية أن يغري قومه بأن يعبدوه. لقد خدر عقولهم بوعود السعادة الأبدية لدرجة أن هؤلاء الناس يفضلون الموت على الحياة. معظمهم على استعداد للقفز من مكان مرتفع دون تفكير، على الرغم من علمهم أنهم سيتحطمون إربًا بحركة رأس أو أمر منه. وعلى حد قوله فإن أفضل تلاميذه هم الذين ماتوا وهم يسفكون الدماء في سبيل قضيتهم. يسلِّم الشيخ الخناجر المخصصة لهذا الواجب لأتباعه الذين خاطروا بحياتهم، وتستمر إلى الأبد حالة النشوة المليئة باللذة والأحلام التي دخلوها بالجرعة التي أعطاهم إياها مكافأة لهم على تضحياتهم على أعمالهم" (برنارد لويس، 2012:12).

هذه الأساطير، التي كتبها أرنولد لوبيك، صُدِّقتْ وقُبلت بمرور الوقت من قِبل الكُتَّاب الغربيين في العصور الوسطى. ولإظهار ولائهم لقضيتهم ولأسيادهم ولترهيب أعدائهم، تنوعت القصص الغامضة حول الإسماعيليين النزاريين،



مثل قطع أعناقهم بكلمة واحدة من سيدهم أو القفز عن أسوار القلعة. وأول كاتب غربي ذكر الحشخاش أو المخدر هو أرنولد أيضًا، وهو مَن نقل معلومات مفصلة ومثيرة للاهتمام عن مشايخ وفدائيي النزاريين السوريين.

وبعد أرنولد، رُوي عدد من القصص المثيرة للاهتمام عن نزاريّي سورية وإيران. وقام الصليبيون، وخاصة أولئك الذين يسافرون إلى الشرق، بتضخيم ما سمعوه من الناس ونشروه في جميع أنحاء أوروبا. وأصبحت قصص القفز إلى الموت وقطع الرأس وإلقاء الفدائيين أنفسهم من القلعة أكثر روعة وأسطورية بمرور الوقت من قِبل الكتّاب الغربيين. وكانت أسطورة القفز إلى الموت موضوع المراسلات بين السلطان ملكشاه وحسن الصباح. وبحسب إحدى الروايات، حذّر السلطانُ ملكشاه حسنَ الصباح في رسالةٍ أرسلها إليه، وطلب منه التوقف عن عمليات الاغتيال، إلا أن حسن الصباح التفت إلى رجاله الذين كانوا معه ليظهر قوته لسفير السلطان وسألهم: "أريد أن أرسلكم إلى المولى عز وجل، فمَن منكم يرغب في أداء هذه المهمة؟"، وبعد أن قال جميع رجاله إنهم مستعدون للوفاء بهذا الواجب، طلب حسن الصباح من أحد رجاله أن يقتل نفسه ليكون عبرة. وفورًا استل الرجل سكينه وقطع حلقه وسقط على الأرض. وطلب الصباح من رجل آخر أن يلقي نفسه من القلعة، وفعلًا ألقى ذلك الرجل نفسه فورًا وسقط على الأرض وصار أشلاء.



التفت حسن الصباح إلى سفير السلطان ملكشاه وقال: "اذهب وأخبر سلطانك أن لديَّ 20 ألف رجل يطيعونني بهذه الطريقة". وعندما عاد السفير إلى السلطان، حكى له ما حدث" (شرف الدين يالتقايا، 1998: 22).

وعلى الرغم من أن الرسائل المتبادلة بين السلطان ملكشاه وحسن الصباح مشكوك فيها، فإنّ هناك نسخًا مختلفة منها. وقد استُخدمت هذه الرسائل، من وقت لآخر، من قِبل الكُتَّاب المسلمين في العصور الوسطى، وفي أول رسالة حذَّر السلطان ملكشاه حسن الصباح من بدء دين جديد، ومن الاغتيالات، وانتقاد الخليفة العباسي. ودعاه للبحث عن الطريق الصحيح، وإلا فإنه سيرسل جيوشه إلى آلموت. وذكر حسن الصباح، في الرسالة الثانية التي كتبها، أنه يُكِنُّ تقديرًا كبيرًا للسفير وتحذيرات السلطان، وشرح اعتقاده وكتب سيرته الذاتية، ثم شرح التحذيرات والادعاءات التي قدمها ملكشاه في الرسالة واحدًا تلو الآخر وحاول إعطاء المبررات. واقتُبِسْت هذه الرسائل من مقالة محمد شرف الدين يالتقايا المنشورة في مجلة كلية الإلهيات بدار الفنون (تشرين الثاني، اسطنبول، 1928) بعنوان (الفاطميون وحسن الصباح). وفي ما يلي النص الكامل للنسخة المبسطة التي أعدَّها عدنان أديجوزيل:

رسالة السلطان ملكشاه إلى حسن الصباح:

"أنتَ يا حسن بن الصباح قد أظهرتَ دينًا جديدًا، تخدع



به الناس، وتغريهم بالخروج على والي الزمان. وجمعتَ نفراً من جُهال الجبال تكلمهم على مقتضى طبعهم فيذهبون ويقتلون الأبرياء، وتطعن في الخلفاء العباسيين الذين هم خلفاء الإسلام، وقوام الملك والملة، وبهم يوثق نظام الدين والدولة، فهلا خرجتَ عن هذه الضلالة وتركت هذه الغواية، وانضويتَ تحت راية الإسلام. إن جيوشي متوقفة على مجيئك أو مجيء جوابك، وعليك أن ترحم نفسك ونفوس أتباعك. ولا تلقِ نفسك ونفوسهم إلى التهلكة. لا يغرنك منعة قلاعك، وعليك أن تعلم أنه لو كانت قلعتك آلموت برجًا من بروج السماء، لهدمنا أركانها بعون الله سبحانه وتعالى".

وقد ردَّ حسن الصباح على رسالة ملكشاه:

"عندما وصل الصدر الكبير ضياء الدين خاقان إلى زاويتنا، وبلَّغ مقالة السلطان إليَّ، وضعتُها على الرأس والعين، ورفعتُ رأسي زهوًا من الفخر والشرف. لقد فسح لي المجال لإظهار اعتقادي، وإنني لأرجو من السلطان أن يصغي إلى كلامي، ولا يشاور في أمري الذين يعلم أنهم من أعدائي، وخصوصًا نظام الملك، وعليه أن يتحقق ممّا أنا عليه من الصدق الذي ليس عليه مزيد، وإن رجعتُ أنا عن ذلك كنتُ كمَن رجع عن الإسلام وعصى الله ورسوله، وإن خشيتُ شيئا فهو خشيتي من أن يكون السلطان قد سمع كلام الأعداء، وكيف لي بمقاومة خصم عنيد يستطيع أن يضع الحق مكان الباطل والباطل



مكان الحق.

ولا بد من الآن وصف حالي:

كان أبي رجلًا مسلمًا على مذهب الشيعة الاثني عشرية. ولما بلغتُ أربع سنين أرسلني إلى المدرسة لتحصيل العلوم والمعارف، وحين مضت أربع عشرة سنة من عمري حذقتُ في علمَي القرآن والحديث، ثم وقعتُ في حماسة الدين، فوجدتُ في كتب الشافعي روايات عديدة في فضائل آل النبي صلوات الله عليه وعليهم فوجهتُ خاطري نحوهم، ولأنني كنتُ أميل إلى إمامتهم في الفكر، كنتُ أبحث دائمًا عن إمام العصر الذي نعيش فيه. حتى جُررتُ إلى أمور الدنيا التي يعظمها الناس. عندما بدأت أتعامل مع الشؤون الدنيوية وأسعى وراء الأشياء التي تعدّ مهمة في نظر الناس، نسيتُ أهدافي الدينية وفقدتُ قلبي تمامًا في الشؤون الدنيوية. لقد تخليتُ عن خدمة الخالق بربط نفسي بخدمة المخلوق. وبسبب ما فعلتُه سلَّط الله تعالى عليَّ أعداء كثيرين وأجبرني على الابتعاد عن مثل هذه الأمور. تجولت في المدن والصحارى هاربًا منها. لقد واجهت كل أنواع المتاعب. أعتقد أنك تعرف الأمور التي جرت بيني وبين نظام الملك. لقد أنقذني الله تعالى من تلك المشكلة، وأدركت أخيرًا أنها نتيجة ترك خدمة الخالق بخدمة المخلوقين. ولذلك اتخذت خطوة أخرى بكل تركيزي على الخدمة الدينية وشؤون الآخرة. ولهذا السبب ذهبتُ من الري إلى بغداد، وبقيت هناك فترة، أطّلع على الوضع



العام، وأحوال الخلفاء وعلماء الدين، وأحاول معرفة الوجه الحقيقي للأحداث.

وقد رأيتُ أن الخلفاء العباسيين عارين من كل مروءة وخالين من مرتبة الفتوة. وكنت أظن أن الإسلام والدين لو كانا مبنيَّين على إمامتهم وخلافتهم، إذنْ فالزندقة والكفر أولى. ثم ذهبتُ إلى مصر من بغداد وكان هناك الخليفة والإمام الحقيقي. لقد بحثت ولاحظت حالتهم. ورأيته أولى وأحق بالخلافة والإمامة من العباسيين. وبرئت تمامًا من الخلافة العباسية بتمسكي بالفاطميين. وأرسل الخلفاء العباسيون رجالًا خلفي ليقبضوا عليَّ في الطريق. وقد أنقذني الله منهم ووصلت سالمًا إلى مصر. ثم أرسلوا مقدار حمل ثلاثة بغال من الذهب إلى أمير الجيوش في مصر ووعدوه بأموال أخرى للقبض عليَّ. لقد نجوتُ من هذه المشكلة بعناية الخليفة والإمام الحق المستنصر بالله. ولكن لما حرَّض العباسيون قائد الجيوش ضدي، فقد رشحني لدعوة الإفرنج. وعندما سمع الإمام بهذا الوضع، أخذني تحت حمايته وأصدر أمرًا بذلك. وكلّفني بتوجيه المسلمين إلى الطريق الصحيح، وإعلامهم بإمامة الخلفاء المصريين وحقيقة حالهم. فما رأي السلطان ملكشاه بالآية: "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم؟".

وأما ما قلتم من أنني أظهرت دينًا جديدًا، فأعوذ بالله من أن أُظهر دينًا جديدًا. أنا أدين بالدين الذي اعتنقه



أصحاب رسول الله، ذلك هو الدين القيم إلى يوم القيامة. فديني هو دين المسلمين: "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله"، وأن أولاد الرسول أحق بخلافة أبيهم من أولاد عباس.

إن آل العباس ارتكبوا منكرات كثيرة لدرجة أنه لا يكفي أن أصف ما رأيتُه من أعمالهم الشريرة. ولم يسبق لأي دين أو أمة أن رأت أو سوف ترى أن ما فعلوه مقبول. فكيف أستطيع وأنا أعلم ما يفعلون أن أعدّهم أهلًا للخلافة وأوافق على خلافتهم؟ فإذا لم يبذل جلالة السلطان جهدًا في إزالة هذه المنكرات وإزالة شرها عن المسلمين مع أنه يعرف حالهم، فلا أدري ما جوابه عندما يُسأل يوم القيامة وكيف ينجو؟!

لقد كان هذا ديني طوال حياتي، وسأستمر على هذا الطريق من الآن فصاعدًا. ولم أنكر هذا الاعتقاد ولو للحظة واحدة. إنني لا أنكر الخلفاء الأربعة، ومحبتهم في قلبي وستبقى كذلك. ولم أظهر دينًا أو أبتدع مذهبًا. مذهبي هو مذهب الصحابة في زمن النبي محمد، وهذا صراطي المستقيم إلى يوم القيامة.

وأما مسألة انتقادي أنا وأتباعي للعباسيين؛ فهل هناك مَن هو مسلم ومطلع على الدين ولا ينتقدهم؟ وهم أناس بدايتهم ونهايتهم مبنية على الكذب وإخفاء الحق والفسق. وأما ما هددتم بحشد جيشكم لتدمير مستقري فإن الذين يعيشون هنا لديهم إيمان كامل بأن هذه القلعة ستظل



تحت أيديهم لفترة طويلة. إنني أقوم هنا بالواجبات المفروضة والسنن، وأدعو الله أن يهدي السلطان وأركان دولته إلى سواء السبيل. وآمل من الله عز وجل أن يوفقهم للدين الحق، وأن يمكّنهم من القضاء على فساد العباسيين. ولو أن السلطان يبغي سعادة الدين والدنيا، لعمل كما عمل السلطان محمد غازي لطردهم والقضاء على شرهم، حيث أحضر السيد علاء الملك خوداوند زاده من ترمذ إلى منصب الخلافة.

فعلى السلطان واجب دفع شرهم وإنقاذ عباد الله، لينجو عباد الله منهم، وإلا فسيأتي وقت يقوم فيه سلطان عادل وينقذ المسلمين من ظلمهم".

وعلى الرغم من استخدام رسائل السلطان ملكشاه وحسن الصباح في عدد من الأعمال، فإنّها مشكوك في صحتها. هذه الرسائل التي قَبِلَ بعض الكُتَّاب بصحتها مثل محمد شرف الدين يالتقايا ونصر الله الفلسفي، لم يقبلها مؤرخون مثل إبراهيم قفص أوغلو وبرنارد لويس وفرهاد دفتري. والواقع أن بعض الأحداث والأسماء المذكورة في الرسالة تثير الشكوك حول صحتها. فقد ورد في الرسائل أن والد حسن الصباح كان شافعيًّا سنيًّا وأنه نشأ على هذا المذهب، وهذا يختلف عن سيرة حسن الصباح التي انتقلت إلينا عبر الجويني ورشيد الدين. وقد حاول عدد من الباحثين، وخاصة إبراهيم قفص أوغلو، التشكيك في هذه الرسائل، وتوضيح أنها قد كُتبتُ لاحقًا. ويتناول



إبراهيم قفص أوغلو هذه الرسائل بشكل مثير للريبة والانتقاد لأنه لا يوجد تاريخ في النص الأصلي للرسائل. بل إنه يدعي أن الصباح رفض كل ما قاله السلطان ملكشاه في الرسالة وحاول إظهار الإسماعيلية كدين صحيح، وهذا ما يثير الشكوك حول احتمال كتابة هذه الرسائل لاحقًا. إضافة إلى ذلك، فإن قفص أوغلو يذكر أن أشخاصًا مثل زياد الدين هاكان، والسلطان محمد غازي، وعلاء الملك هداوندزاده، الذين أخذوا رسالة ملكشاه إلى حسن الصباح، كانوا مجهولين تمامًا في ذلك الوقت. كما أن بيت الشِّعر الفارسي الوارد في الرسالة لدعم طبيعة الجواب يعود إلى سعدي الشيرازي، ومن غير الممكن لحسن الصباح أن يعرف أشعار شاعر جاء بعده بحوالي قرن ونصف، ولذلك من المحتمل أنها استخدمت لتعزيز الدعاية خلال الفترة التي وصل فيها الإسماعيليون إلى السلطة، ويرى قفص أوغلو أن هذه الوثائق ملفقة من قِبَلهم، (إبراهيم قفص أوغلو، 1953: 134).



المكان والدفاع والحماية

كانت الأماكن التي استقر فيها الإسماعيليون النزاريون مهمة في عملية الدعاية. وكانت أماكنهم الجبال والقلاع. لقد بنوا جميع مبانيهم ومستوطناتهم على القلاع. وهكذا، استولى النزاريون على أراض متناثرة تتكون من قلاع عديدة وقرى وبعض المدن الصغيرة، الممتدة من إيران إلى سورية. وقد فضّل النزاريون الأماكن التي يصعب الوصول إليها. ولهذا الغرض فضلوا المراكز المرتفعة والصخرية والمغلقة أمام العوامل الخارجية. وفي واقع الأمر، أعطوا الأولوية لمنطق (المكان- الدفاع- الحماية) بعد أن هيمنوا على الأماكن الصعبة في المناطق الجبلية. وأنشؤوا مراكز مختلفة لأنفسهم، بعد استيلائهم على عدد من القلاع في رودبار وكوهستان وسورية. وبينما أصبحت الجبال موطنهم، اعتمدوا الاغتيالات والصراعات الفردية بدلًا من الحروب الكبرى، وأظهروا مقاومة كبيرة في عملياتِ حصارِ القلاع التي استمرت أشهرًا. وكانت أفضل استراتيجية فكّر فيها حسن الصباح لتدمير الإمبراطورية السلجوقية العظمى هي الاستيلاء على القلاع وإعداد دفاع محصن ومكان يصعب الوصول إليه.

وإذا نظرنا إلى القلاع في المناطق التي ينتشرون فيها، نرى أنهم انتشروا بشكل غير متساوٍ في منطقة جبلية ومتفرقة من شرق إيران إلى سورية. وكما هو معروف فإن أهم قلاعهم هي آلموت. كما استولوا أيضًا على عدد



من القلاع الأخرى في ديلم غير آلموت، إضافة إلى قلاع كوهستان، وقلعة أوستون أفند في شمال دامغان، وقلاع في خوزستان، وكوهستان والمناطق الجبلية الأخرى، كما استولوا أيضًا على قلعة شاه ديز في أصفهان مركز السلاجقة.

لقد استولوا على ما يصل إلى خمسين قلعة، كبيرة وصغيرة. وكانوا يستولون على بعض القلاع بالحيلة دون قتال، وأحيانًا عن طريق التسلل إلى قادة القلعة وإرعابهم، وأحيانًا عن طريق شرائها بالمال، كما قاموا ببناء قلاع جديدة. وكما هو معروف فإن أشهر هذه القلاع وأكثرها فعالية هي قلعة آلموت وتكريت وجيردكوه وشاه ديز. لقد استخدموا هذه المناطق المبنية على الجبال والواقعة في مراكز بعيدة عن حياة المدينة، كميادين عسكرية ومساحات للعيش. وأفضل مثال على ذلك هو قلعة آلموت، التي يطلقون عليها اسم (بلدة الإقبال).

وكانت الحماية والحذر مهمَّين بالنسبة للإسماعيليين النزاريين في دعايتهم. وبصرف النظر عن اختيار الموقع، فما هي نوعية الاستعدادات التي كان الإسماعيليون النزاريون يقومون بها في القلاع لأغراض الحماية والاحتراز؟ لقد عملوا فترة طويلة على تقوية القلاع ضد احتمال الحصار والهجوم. وأول شيء فعلوه بعد الاستيلاء على القلاع هو تقوية أسوار القلعة وبواباتها. وكانت أول مهمة لحسن الصباح بعد الاستيلاء على قلعة آلموت هي تقوية بوابة



القلعة وأسوارها، ثم جعل القلعة صالحة للعيش فترة طويلة، واتخذ إجراءات جادة ضد الهجمات. وعلى الرغم من أن عددًا قليلًا للغاية من أطلال القلعة، خاصة المتعلقة بقلعة آلموت، قد بقيت حتى يومنا هذا، فإن أهمها هي طرق إمدادات المياه الخاصة بهم، لتقديم معلومات عن أسلوب حياتهم الفريد، وتُظهر أن لديهم بنية تعكس روح المقاومة العنيدة لديهم للظروف المعيشية الصعبة للغاية.

قام حسن الصباح ببناء مشتل لأشجار الفاكهة حول القلعة. وكان لديه خزانات مياه باردة للطعام ومستودعات وأقبية لتخزين الأطعمة داخل القلعة. كان من المثير للإعجاب حقًّا أنه يمكن تخزين الطعام فترة طويلة في ظلِّ ظروف تلك الفترة. وبالمثل، بينما كانت مستودعات الأطعمة التي يحفظون فيها العسل والنبيذ والخل والأطعمة المختلفة وما إلى ذلك تتعرض للنهب من قبل جنود هولاكو، يذكر أحد الناهبين أنه اعتقد أن مخزن العسل بركة الماء فغطس فيها مثل الدلفين. وينقل الجويني الذي شاهد قلعة آلموت معلومات مهمة عن متانة القلعة ومحتوياتها في عمله، يقول: "إن تلك القلعة (أي آلموت) بُنيت بشكل متين للغاية. حتى الحديد لم يكن يستطيع اختراق هذه الجدران أو تحريك قطعة حجر صغيرة من مكانها. كما بُنيت خزانات مياه كبيرة الحجم باستخدام الحجارة والجير بأطوال وعروض مختلفة، كما قاموا بنحت البيوت في الصخر". (الجويني، 1999: 554). ويذكر أنه عندما استولى



الحاكم المغولي هولاكو على القلعة، كلف عددًا من الجنود والمجندين بهدم القلعة، لكن عندما لم تنجح الفؤوس في كسر الجدران، حاولوا أولًا هدم أسطح المنازل ومن ثم الجدران.

لقد كان النزاريون الذين قضوا فترة كبيرة من دعايتهم في الحماية والدفاع في القلاع، في حالة تأهب دائم ضد الهجمات ضدهم، وتمكنوا من العيش في قلاعهم حتى مجيء المغول.



المقاومة والعقيدة: فطيرة واحدة وثلاث حبات جوز

ظل حسن الصباح وتلاميذه مخلصين بشكل لا يُصدَّق لقضيتهم، لدرجة أنهم استمروا في الإقامة في القلاع التي حاصرها السلاجقة والمغول عدة مرات، واستمروا في مقاومتهم حتى النهاية. وخلافًا لما هو معروف في العصور الوسطى، لم ينخرط الإسماعيليون النزاريون تقريبًا في حروب ميدانية متبادلة في ساحات القتال مثل القوى الأخرى. لقد اختاروا غالبًا أسلوب الدفاع والنضال من خلال مقاومة حصار القلعة واستخدام الهجمات والاغتيالات الممنهجة، واحدة تلو الأخرى، من خلال الفدائيين. لقد أبدوا مقاومة جدية ضد الحصار الطويل الذي استمر لعدة أشهر، وظهرت معنوياتهم العالية عندما واجه أهل القلعة صعوبة في المقاومة. على سبيل المثال، حاصر السلاجقة قلعة آلموت عدة مرات. وفي واقع الأمر، فإن حصار الأمير يورونتاش لآلموت في عهد السلطان ملكشاه وضع الإسماعيليين في موقف صعب للغاية. لكنّ مَن كانوا في القلعة صمدوا أمام هجمات يورونتاش بصبر وقوة كبيرين، لدرجة أنه عندما شدد الأمير يورونتاش الحصار ونَفِدت المؤن في القلعة، ترك الإسماعيليون القلعة لعدد قليل من الفرسان وكانوا يعتزمون الهجرة، فقال لهم حسن الصباح إنهم تلقوا أوامر من المستنصر بعدم ترك المكان وأنهم سينتصرون قريبًا، وكان هذا الكلام سببًا في منحهم القدرة



على التحمل والبقاء في آلموت والمقاومة. وفي الواقع، مع وفاة الأمير يورونتاش في أثناء الحصار، زادت الروح المعنوية للإسماعيليين أكثر، ويُعزى هذا الحدث إلى معجزة حسن الصباح. وفعلًا رُفع الحصار بعد وفاة الأمير. ولهذا السبب أطلق الإسماعيليون على قلعة آلموت اسم (بلدة الإقبال) (المدينة المحظوظة).

لقد قدم النزاريون اختبار مقاومتهم الثاني في عهد محمد تابار. فعندما حاصر الأمير أنوشتكين شيرجير قلعة آلموت، دُمِّرت المحاصيل في رودبار، منطقة آلموت، ووقعت أضرار جسيمة. وللاستيلاء على قلعة ألموت، أمر الأمير أنوشتكين شيرجير ببناء ثكنات أمام القلعة، وتمركزت مجموعات من الجنود فيها لبضعة أشهر. قاوم سكان قلعة آلموت لمدة تسعة أشهر تقريبًا. وبسبب الحصار نفد الطعام في القلعة وبقي من بداخلها في وضع صعب، لدرجة أن حسن الصباح اضطر إلى أن يعطي كلَّ شخص فطيرة واحدة وثلاث حبات جوز في اليوم. وبأمر من محمد تابار، هاجم الأمير أنوشتكين شيرجيري القلعة بعنف. وبينما كان الإسماعيليون، الذين أبدوا مقاومة جدية، على وشك الاستسلام، وصلهم خبر وفاة محمد تابار وتم وقف الحصار. وهجم أهل القلعة الذين كانوا في بؤس على ما تركه الجند ونقلوا أسلحة ومؤنًا بقيمة مائتي ألف دينار.

ولم يكن من السهل عليهم حماية قلعة شاه ديز، إحدى القلاع المهمة للنزاريين (تحت إدارة أحمد بن عبد الملك



بن عطاش)، وقاتلوا حتى آخر قوتهم. وفي نهاية الحصار الطويل، كان الإسماعيليون في القلعة في وضع صعب وبدؤوا يعانون نقصا خطيرا في الغذاء. خرج أكثر من مائة ألف من النساء والرجال والأطفال من القلعة، وجمعوا كل شيء مثل القمامة والروث وألقوها على رؤوس الجنود السلاجقة، وضربوا بأقدامهم على الأرض وهم يهتفون بانسجام: "العطاش العظيم حبيبنا! هناك قمر في منتصف رأسه، وفي القلعة قُبَّرة". (الراوندي، 1957: 157)، وواصلوا المقاومة حتى النهاية، مصحوبة بصرخات الاحتجاج.

ونتيجة لذلك، نجح الإسماعيليون النزاريون في اختيار المكان، والاحتياطات الدفاعية والمقاومة. لقد عززوا الأماكن التي بنوها على القلاع بالإجراءات التي اتخذوها، واستطاعوا المقاومة بروح معنوية عالية وإيمان، وحافظوا على وجودهم ما يقرب من 167 عامًا، بالتزامهم تجاه بعضهم، وشغفهم ببعضهم، وعنفهم المخطط والمنظم. وبمقاومتهم في القلعة قدموا صراعًا غير مسبوق.



الولاء والمُكافَأة

في الدعاية السياسية، لم تكن علامة الولاء هي التقية وقبول الدعوة فحسب، بل كانت الموارد المالية مهمة أيضًا. كان الإسماعيليون النزاريون، الذين أسسوا هيكلًا مستقلًّا في الأراضي السلجوقية عبر وسائل غير شرعية، واتخذوا موقفًا معارضًا وناضلوا من أجل البقاء ضمن الدولة والنظام القائم، في حاجة ماسة إلى الموارد المالية لتنفيذ دعايتهم، وللحفاظ على استمرار الحياة الاجتماعية. ولهذا السبب، فإنهم حاولوا البقاء على قيد الحياة بفضل الضرائب التي كانوا يتلقونها من الأهالي وبعض الحكام، والخَراج والغنائم والنسيج وتربية الحيوانات والنهب والهدايا، فضلًا عن الأموال التي يجمعونها في ما بينهم من خلال التضامن، والدخل من الزراعة. وكان الجزء الأكثر لفتًا للانتباه من بين مصادر الدخل، هو تحصيل الضرائب لحركة لم تتمكن من أن تصبح دولة بشكل كامل خلال فترة الدعاية. تم جمع الضرائب قسرًا أو طوعًا من مجموعات متباينة لأسباب مختلفة.

كان الدعاة الإسماعيلية يدعون الناس ويشرحون الحقيقة السرية لمَن أرادوا، ويطلبون من مريديهم نوعًا من الضريبة من أجل خزانة الإمام. وبعد مراقبة الشخص الذي سيقبلونه في طائفتهم لمدة عام، بعناية وصبر، كان الداعي يعلمه أولًا معنى الصلاة والزكاة في الإسماعيلية، ثم يأخذ منه 12 دينارًا، ويذهب بهم إلى الإمام ويقول:



"لقد فهم فلان معنى الصلاة والزكاة نخلِّصه من هذا العبء". ثم يقول الإمام: "قد رفعتُ عنه عبء الصلاة". ثم يرفع عنه عبء الصيام مقابل 12 دينارًا (أحمد أتيش، 1954: 341). وكان الداعي يتحدث عن وقت دخول الجنة بالعقل مقابل 12 دينارًا أيضًا. كل هذا كان ثمن الولاء للانضمام إلى الطائفة. كان الذين يريدون الانضمام إلى الإسماعيلية يدفعون هذه الضريبة في أوقات منتظمة دون أي تأخير. وذهبت هذه الضرائب مباشرة إلى خزينة القلعة أي إلى المركز. وبالمثل، فإن ابن عطاش، الذي أنشأ دار دعوة بالقرب من أصفهان، حوَّل ثلاثين ألف شخص في المنطقة إلى الإسماعيلية النزارية، وضمهم إلى الطائفة الإسماعيلية كأتباع، وتمكن من جمع الضرائب في المنطقة المجاورة للعاصمة، وأضرَّ بخزينة السلاجقة.

وفضلًا عن ذلك، فمقابل عدم التعرض بالأذى للقرى التي هاجموها والالتزام بطاعتهم، فرض الإسماعيليون ضرائب على حيواناتهم وبيوتهم وجميع ممتلكاتهم، وكانوا يجمعون الضرائب على فترات منتظمة. وبينما كان ابن عطاش يحكم القلعة في أصفهان، كان يهاجم كل مكان بشكل عشوائي وينهب كلَّ مكان، وقَبِل الناس أن يدفعوا له الضريبة ليخلصوا من شره، وكانوا شاكرين لخلاصهم بذلك. ولذلك، عزَّز الدعاة الإسماعيليون النزاريون سلطتهم من خلال جمع الضرائب، التي ذهبت مباشرة إلى خزانة القلعة، كحق عضوية، من الأشخاص الذين شرحوا لهم



المذهب الإسماعيلي وجعلوهم يقبلونه.



تسلُّل الإسماعيليين إلى الدولة والجيش

عمل الإسماعيليون النزاريون بجدّ وتخطيط ومنهجية من أجل قضيتهم، واحتلوا مناصب في مؤسسات مهمة بالدولة السلجوقية عبر وسائل سرية. لقد تمكنوا من التسلل إلى الجيش السلجوقي وتنظيم الدولة والمدارس والمساجد وغيرها. وفي بعض الأحيان كان الإسماعيليون النزاريون يصلون إلى مناصب مهمة، وفي أحيان أخرى، كان بعض البيروقراطيين السلاجقة يتبنون المذهب الإسماعيلي وهم في مناصب مهمة فعلًا، ولم يعلنوا عن عقيدتهم من أجل القضية.

كان هناك عدد من رجال الدولة داخل الدولة السلجوقية الذين دعموا الإسماعيليين النزاريين. وكما هو معروف، فإن الهدف الأكبر لحسن الصباح وخلفائه، الذين ناضلوا لفترة طويلة من أجل إنشاء هيكل مستقل داخل الأراضي السلجوقية، كان تعبئة الجماهير لتحقيق أهداف سياسية، وتحديد بعض المناطق المهمة في الأراضي السلجوقية وتغيير البنية السياسية والاجتماعية لها من أجل الغزو من الداخل. واعتُمدت استراتيجية الاستيلاء على أكبر عدد ممكن من القلاع بشكل فردي وسري وبدء انتفاضة في تلك المناطق. لقد تمكنوا من تقويض سلطة الدولة من خلال بثِّ الخوف والقلق والاضطراب في الدولة والمجتمع، من خلال الاغتيالات والتهديدات الموجهة ضد الذين لم يتمكنوا من كسبهم من



خلال الكتّابة والدعاية، مثل العلماء والأمراء والولاة.

وإضافة إلى ذلك، وبينما واصلوا سياستهم التخريبية من الداخل من خلال التسلل إلى وحدات مهمة من الدولة وشغل مناصب مختلفة، فقد اتصلوا ببعض رجال الدولة السلاجقة الذين كانوا غير راضين عن الهيمنة السلجوقية. ومن بين رجال الدولة الذين تم الاتصال بهم، الوزراء والملوك والأمراء وقادة القلاع والعلماء، الذين خدموا في الوحدات العسكرية والبيروقراطية المهمة في الدولة، وقد دعموا النزاريين في بعض الأحيان علنًا، وأحيانًا بسبب الخوف سرًّا.

وعندما نتساءل عن سبب دعم بعض رجال الدولة السلاجقة للإسماعيليين النزاريين ومنحهم امتيازات معينة، فإننا نواجه عدة عوامل وأسباب. وأحد هذه الأسباب هو الخوف من التعرض للاغتيال. وكما هو معروف فإن الاغتيالات التي نفذها النزاريون خلقت جوًّا من الرعب في البلاد، وحتى الأمراء والقادة والعلماء ورجال الدين الذين عارضوا الإسماعيليين خرجوا وهم يرتدون دروعًا تحت ملابسهم لاتخاذ الاحتياطات اللازمة ضد الاغتيالات. وخلال هذه الفترة، لم يكن هناك أمان في الطرقات، وكان العشرات من المسلمين السُّنة يُقتلون كلَّ يوم، وتم مداهمة قوافل الحج، وارتُكبت جرائم قتل جديدة وتم توجيه التهديدات الجديدة. وبينما نال عدد من رجال الدولة نصيبهم من هذه التهديدات، اضطر بعضهم إلى



دعم النزاريين على مضض بسبب الخوف أو بسبب بعض الامتيازات. ومن الأشخاص الذين تعرضوا لهذه التهديدات هو السلطان سِنجر.

في عهد سنجر، حدثت هجمات خطيرة ضد الإسماعيليين، خاصة في منطقة كوهستان. بعد وفاة السلطان محمد تابار، حكم سنجر ملكًا على خراسان وحقق نجاحًا كبيرًا، وانتصر في الصراع على العرش مع ابن أخيه وتمكن من الجلوس على العرش السلجوقي وحده لمدة ستين عامًا. وفي هذا الوقت، استغل الإسماعيليون الصراع على العرش، خاصة بين سنجر وابن أخيه محمود، واستعادوا بعض القلاع التي اكتسبها أنوشتكين شيرجير في هجماته على منطقة رودبار، خاصة بعد وفاة محمد تابار.

وقد حدثت أكبر خسائر للإسماعيليين النزاريين خلال تلك الفترة بسبب هجمات سنجر على كوهستان وآلموت. وتركت الهجمات حسن الصباح ورجاله في وضع صعب للغاية، وفقدوا ما يقرب من 10000 شخص. ومن ناحية أخرى، بعد أن أعلن المختص أبو النصر أحمد بن الفضل، وزير السلطان سنجر، الجهاد ضد الإسماعيليين، طالب بقتلهم حيث تم أسرهم ونهب بضائعهم وسبي نسائهم، وأرسل جيشًا إلى كلِّ أماكن الإسماعيليين في منطقة بيهك بنيسابور. كما هاجموا قرية طرز، التابعة للإسماعيليين، تحت قيادة الحسن بن سيمين، وقتلوا جميع الإسماعيليين في القرية. ونجا الزعيم الإسماعيلي من المذبحة، وانتحر بالقفز



من فوق المئذنة.

عزم الوزير على القضاء على الإسماعيليين. أما حسن الصباح، الذي كان في وضع صعب أمام هذه الهجمات، فقد أرسل مبعوثًا إلى سنجر عدة مرات، لكنه لم يقبل استقبالهم. وعندما اعتقد حسن الصباح أنه لن يستطيع تحقيق نتائج من المبادرات الدبلوماسية، تدخل في الحادثة بأفضل وسيلة: الخنجر والرسالة. أرسل خنجراً مع المال إلى أحد خدم القصر، وأعطى ألف كيس ذهبي لكلٍّ من الفدائيين الذين أحضروا الخنجر، وبعد تدريبهم شفهيًّا على بعض الأشياء، أرسلهم إلى قصر السلطان سنجر. قام أحد هؤلاء الشباب بتسليم أكياس الذهب مع الخنجر إلى الخادم. وضع الخادم الخنجر بجانب سرير السلطان الذي نام وهو سكران. وعندما استيقظ السلطان في الصباح ورأى الخنجر شعر بالقلق، وعيَّن رجلًا للتحقيق في الأمر سرًّا.

وفي ذلك الوقت أرسل حسن الصباح رسولًا ومذكرة صغيرة إلى السلطان. وكتب على المذكرة: "لو لم أفكر في سلامة السلطان، لجعلتُهم يغرزون هذا الخنجر في صدره" (الجويني، 1999: 546). وكان على السلطان سنجر، الخائف من هذا التهديد، أن يوافق على عقد اتفاق مع حسن الصباح ومنحه بعض الامتيازات.

ويذكر عطا ملك الجويني، الذي كان هناك قبل أن يحرق المغول قلعة آلموت، في كتابه (تاريخ جهان كوشا)



أنه وجد عدة مراسيم للسلطان سنجر بخصوص السلام في مكتبة قلعة آلموت. ويذكر في هذه المراسيم أن سنجر دعا الإسماعيليين النزاريين إلى مزيد من السلام والصداقة وصبر عليهم. وفي هذه الاتفاقية، طلب سنجر من حسن الصباح عدم دعوة أحد إلى معتقداته، ومواصلة حياته الطبيعية، وعدم تهديد أمن الطرق، وعدم النزول من القلاع إلى المدن، وعدم بناء قلاع جديدة وشراء الأسلحة. وفي المقابل، بينما تم منح الإسماعيليين النزاريين تصاريح إقامة في أراضي السلاجقة، وتخفيض 3 آلاف دينار من خراج الإسماعيليين في منطقة كُرميش التابعة للإسماعيليين، وتم تحديد المبلغ الذي سيعطى لهم من جمع ضريبة الطريق في أثناء المرور عبر جيردكوه. وفي الواقع، كانت هذه الاتفاقية مهمة من حيث اعتراف السلاجقة الكبار رسميًّا بالإسماعيليين النزاريين، ولم يكن هناك هجوم جدي على الإسماعيليين من قبل سنجر حتى وفاة حسن الصباح.

في هذه الأثناء، وبعد أن أوقف حسن الصباح هجمات السلطان سنجر، حبس نفسه في غرفته وانشغل بتصنيف الكتب المتعلقة بطائفته لمدة ست سنوات. وقد واجه الاتفاق المبرم مع سنجار صعوبة في قبوله بين النزاريين، وخاصة في خراسان وكوهستان، لم يقبل أحد هذا الاتفاق، بل رجع بعضهم فيه. من ناحية أخرى، نجح سنجر ولو قليلًا في إيقاف تقدم الإسماعيليين.



كما ورد في المصادر أنه خلال هذه الفترة تعاون السلطان سنجر مع الإسماعيليين الذين تسللوا إلى القصر، وكان يتلقى المساعدة منهم بين الحين والآخر. على سبيل المثال، ورد في بعض الروايات أن سنجر أخفى بعض الإسماعيليين في قصره، وأمرهم بقتل أحد الرجال المقربين منه، وهو الأمير اختيار الدين جوهر التاجي. في الواقع، كان هذا الأمير عبدًا لوالدة سنجر ومن أهل الثقة عنده. ولهذا أطلعه على أسراره وقراراته، ورفعه إلى مستوى لم يصل إليه أحد من قبل، وأعطاه ما يقرب من ثلاثين ألف جندي تحت إمرته. ومع ذلك، في وقت لاحق، عندما شعر بعدم الارتياح بسبب فترة ولايته الطويلة وأسباب أخرى، أمر الإسماعيليين بقتله. يروي البنداري، أحد مصادر تلك الفترة، هذا الحدث على النحو التالي: "أُبلغ جوهر أنه على وشك الاستدعاء، وأدرك أن الشخص الذي يريد قتله هو السلطان، لكنه أبقى الأمر سرًّا. وفي أحد الأيام، عندما قال له السلطان: "يا جوهر، أخاف عليك من هؤلاء الملعونين، احذر منهم، وامش بحذر". فقال: "إذا وثقتَ بي فلن أخاف أحدًا، ولن أطلب المساعدة من أحد".

وفي أحد الأيام، عندما كان جوهر يغادر منزله ودخل ممر القصر وسيفه في خصره والحراس من أمامه وخلفه، هجم عليه مجموعة من الإسماعيليين وطعنوه بالسكاكين، كما قال السلطان سنجر، الذي كان في جانب الحريم



ومع ارتفاع الصرخات: "ها قد قُتل جوهر" (البنداري، 1999: 245). لاحقًا، استولى الأمير عباس، أحد عبيد جوهر السابقين، على الري والمناطق المحيطة بها أولًا للانتقام من مقتل جوهر على يد الإسماعيليين، وبدأ في جمع بضائع المنطقة. وعزز الأمير عباس قوته ضد السلطان سنجر والسلطان مسعود، وهاجم الإسماعيليين بجيش كبير وقتل أكثر من مائة ألف شخص، حتى إنه بنى في الري مئذنة من جماجمهم، وكان المؤذنون يصعدون هذه المئذنة ويؤذنون. وفي الواقع، كان سنجر مرنًا مع الإسماعيليين النزاريين بسبب خوفه منهم. ولهذا السبب اتهمه الخليفة العباسي بالتسامح معهم. وعندما اضطر سنجر إلى مواجهة الإسماعيليين بشكل مباشر، اختار التخلص من المسؤولية عن طريق ترك الوظيفة لوزرائه. وكذلك اغتيل وزيره كاشاني عام 1127، بعد عام من وصول الأخبار إلى بغداد بأن سنجر قتل اثني عشر ألفًا من الإسماعيليين، بسبب الإجراءات والهجمات التي قام بها ضد الإسماعيليين.

لقد سعى رجال الدولة السلاجقة، مثل بعض الملوك والأمراء والوزراء، في صراعهم السياسي ضد بعضهم، إلى إقامة تحالفات من أجل الحصول على مناصب وسلطة أفضل من خلال الحصول على الدعم من الإسماعيليين النزاريين وتصرفوا وفقًا للسياسة النزارية. مثلًا، كان رضوان بن تُتش حاكم حلب، يعلم جيدًا أنه ضعيف



عسكريًّا أمام الأمراء المنافسين في سورية، لذلك سعى إلى إقامة تحالفات جديدة، ولهذا السبب حارب علنًا في حلب وغضَّ الطرف عن الدعاية الإسماعيلية هناك. بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك، فسمح بممارسة ونشر المعتقدات والدعاية النزارية بشكل علني، واستخدم حلب كقاعدة للأنشطة الإسماعيلية، وساعد الإسماعيليين أيضًا في إنشاء دار الدعوة. وبسبب هذا الموقف، أدانه بشدة السلطان السلجوقي محمد تابار. وكذلك واصل ألب أرسلان في البداية سياسة أبيه رضوان تجاه الإسماعيليين، بل وذهب إلى أبعد من ذلك وأعطاهم قلعة قريبًا من بادي على طريق حلب- بغداد، فتأثر حكام وأعيان حلب بشدة بسبب الضغط الإسماعيلي. ومن ناحية أخرى، كان السلطان السلجوقي محمد تابار يتابع من كثب النشاط الإسماعيلي في حلب منذ عهد رضوان بن تُتش، ويرسل التحذيرات بين الحين والآخر، وقد أرسل رسالة إلى ألب أرسلان يحذِّره فيها من الإسماعيليين، ثم أمر بقتل أبي طاهر الذي لعب دورًا مهمًّا في انتشار الإسماعيلية في حلب وفي جميع أنحاء سورية، وشقيق الحكيم المنجم أحد دعاة الإسماعيلية في سورية، و200 من أبرز الإسماعيليين، كما أمر بسجن الآخرين.

قدَّم الإسماعيليون، الذين شغلوا مناصب مهمة داخل الدولة في عهد السلطان محمد تابار، جميع أنواع التضحيات سرًّا وبدوا كأنهم أشخاص جديرون بالثقة، وتمكنوا من



الخدمة في مناصب مهمة مثل الحراس الشخصيين للحكام ورجال الدولة، وخدم القصور وحتى الوزراء. وقد قدَّم وزير محمد تابار، سعد الملك، الذي أخفى أنه إسماعيلي، دعمًا جديًّا للإسماعيليين في أثناء وجوده في الخدمة واستخدم موارد الدولة لهم. كان سعد الملك أول شخص لجأ إليه الإسماعيليون النزاريون عندما كانوا في وضع صعب في أثناء حصار قلعة شاه ديز. وكان سعد الملك يرسل كل احتياجات القلعة يوميًّا، بما في ذلك الطعام والفاكهة، دون علم السلطان. وقد واصل الإسماعيليون مقاومتهم بتخزين الطعام والذهب الذي أرسله الوزير.

كما أن سعد الملك، أحد أقرب رجال محمد تابار وأكثرهم ثقة في القصر، قد نفذ بعض الخطط المثيرة للاهتمام لدعم الإسماعيليين والقضاء على السلطان، وأبرز هذه الخطط هي التي نسميها (حادثة المِشرط). تقول الروايات إن محمد تابار كان يُسحب منه الدم كل شهر من أجل صحته. وبمعرفة هذا الوضع، خطط وزيره سعد الملك لقتل السلطان وعقد اتفاقًا مع الشخص الذي يسحب دمه. فقد أعطى هذا الشخص مشرطًا مغموسًا بالسم لسحب دم السلطان مقابل ألف قطعة ذهبية. وكان الخاطبي، الذي يعمل في القصر السلجوقي، على علم أيضًا بهذه الخطة السرية للوزير. أخبر الخاطبي زوجته عن الخطة التي وضعها مع سعد الملك، فقلقت من هذا الوضع، وحكت لصدر الدين الهوجندي، زعيم الشافعيين



في أصفهان، الذي شرح للسلطان الوضع دون انتظار. وفورًا جعل السلطان آخذ الدم يعترف، وعندما عرف الحقيقة قتله بنفس المشرط. وبعد أن تبين أن سعد الملك إسماعيلي، قُبض عليه وصُودرت ممتلكاته وشُنق عند باب أصفهان ليكون عبرة للجميع.

ومع ذلك، يذكر البنداري أن الوزير سعد الملك تعرض للافتراء، وأن هذه الحادثة كانت لعبة من ترتيب الخاطبي. وبحسب الروايات، صار الخاطبي أمير أصفهان، وتولى قيادة المدينة وكان يخاف من سعد الملك. ولهذا السبب، طلب مقابلة السلطان وحده وذكر أن سعد الملك إسماعيلي ويتعاون معهم. كما أعد سعد الملك خطة ردًّا على الخطة التي أعدها الخاطبي، لكن ورد في المصادر أنه وقع في فخّ الخاطبي وفقد حياته في النهاية. وبحسب رواية أخرى، فإن سعد الملك كان على علم بالمفاوضات التي جرت بين الخاطبي وأحمد بن عبد الملك بن عطاش رئيس الإسماعيلية.

بعد هذه الأحداث، وصل محمد تابار إلى مرحلة لم يعد يستطيع فيها الثقة بأحد، بعد أن رأى أنه حتى رجال الدولة من الدرجة الأولى في القصر كانوا من أنصار الإسماعيلية. في الواقع، أصبح كثير من رجال الدولة الذين خدموا في القصر، مثل سعد الملك، من أنصار الإسماعيليين وحاولوا الحفاظ على سرِّيتهم داخل الدولة، ومساعدة الإسماعيليين وإعدادهم للتسلل إلى القصر.



الوزير السلجوقي الآخر الذي دعم الإسماعيليين وتعاون معهم هو الدركُزيني. وقد تعاون مع الإسماعيليين عدة مرات. على سبيل المثال، بالاتفاق مع بعض الإسماعيليين، قتل زين الإسلام أبا سعد محمد بن نصر بن المنصور الهروي، أحد أفضل القضاة في تلك الفترة. كان الهروي شخصًا مهمًّا ومميزًا عند سلاطين عصره. وكان لقاء الهروي بالسلطان سنجر قد أزعج الدركزيني، الذي كان وزيرًا جديدًا في ذلك الوقت. ولهذا السبب وحده، عقد الدركزيني اتفاقًا مع بعض الإسماعيليين وأراد قتل الهروي بعد عودته إلى خراسان. ومن بين ضحاياه أيضًا آق سنقر البُرسقي في الموصل. ولأن البورسقي قاوم الإسماعيليين وحاربهم، فقد قُتل في مسجد الموصل نتيجة التعاون المشترك بين الوزير الدركزيني والإسماعيليين. كما ساعد الدركُزيني الإسماعيليين في حصار آلموت على يد الأمير شيرجير، أحد أمراء محمد تابار، وأصدر أمرًا بتفريق الجنود السلاجقة واعتقال شيرجير. وكان السلطان محمود تحت تأثير الوزير الدركزيني الذي كان من أنصار الإسماعيليين، وبتوجيهاته قتل الأمير شيرجير وابنه.

وبالمثل، لم يرغب أبو الفضل وزير سنجر، في أن يكون الدركزيني وزيراً في العراق. جاء الدركزيني، الذي انزعج من هذا الوضع، إلى خراسان لقتل العديد من الوزراء بمساعدة الإسماعيليين، بعد وقت قصير من اجتماعه السري معهم. وقام الدركزيني، بقتل بعض رجال الدولة



علناً بإذن السلطان، وبعضهم سراً باستخدام الإسماعيليين ومساعدين آخرين. ومع ذلك، فقد دفع حياته ثمن هذه الأنشطة وقُتل بسبب دعمه للإسماعيليين بأمر من السلطان السلجوقي العراقي طغرل. وبحسب الروايات، ذهب السلطان طغرل أولاً إلى أصفهان ثم إلى خوزستان هرباً من أخيه مسعود. وأثناء هروب طغرل، سأل الوزير: "أين الجنود؟ وأين الضمان الذي قدمتموه بشأن القوة والكفاية؟ فقال الوزير للسلطان: "لا عليك. لا تفكر حتى في الخطر، لقد قمتُ بإعداد مجموعة من الإسماعيليين لقتل أعدائك. إنني أرى بالفعل دمار أعدائكم يقترب". فغضب السلطان وقال: "أرى أن عقيدتك فاسدة"، وأمر بشنق الدركزيني حتى الموت (البنداري، 1999: 159). ولكن عندما كانوا على وشك تعليق الدركزيني، انقطع الحبل. وبينما كان عبد الأمير شيرجير يشاهد هذه الحادثة، قفز عليه فورًا وقطع رأس الدركزيني بالسكين الذي كان معه، وأخذ رأسه وأجزاء جسده من مدينة إلى أخرى للتشهير به.

حاول الإسماعيليون التسلُّل إلى الجيش السلجوقي، والاستيلاء سرًّا على إدارة الدولة والجيش، وإنشاء هيكل مناسب لقضيتهم الخاصة. لقد استفادوا جيدًا من الفجوة الإدارية التي نشأت خلال الصراع المستمر على العرش والسلطة بين محمد تابار والسلطان بركياروق، وتمكنوا من التسلُّل وتولي مناصب مهمة بالفعل، أحيانًا كأمراء في



الجيش، وأحيانًا أخرى كوزراء مقربين للسلطان، وأحيانًا كخدم.

تمكن بركياروق (1104 -1092)، من الجلوس على العرش السلجوقي بعد معارك العرش الدموية مع محمد تابار، لكنه استمر في القتال مع أخيه. وبينما اهتز عرش السلاجقة بسبب الصراعات الداخلية، عمل النزاريون بلا توقف وحولوا آلموت إلى قلعة منيعة قادرة على الصمود في وجه حصار لا نهاية له. ومن ناحية أخرى، واصلوا نشاطهم بطريقة منظمة للغاية، واكتسبوا قلاعًا جديدة مثل لاماسار في منطقة رودبار، وزادت أعدادهم وقوتهم، إلا أن بركياروق لم يتمكن من الاهتمام بالإسماعيليين بسبب قضايا الدولة الأخرى، واضطر إلى غض الطرف عنهم، وإن كان ذلك على مضض، ولم يتمكن من منع تسللهم داخل الدولة والجيش، لدرجة أن الجيش السلجوقي انقسم قسمَين: جيش بركياروق وجيش محمد تابار، وحارب أحدهما الآخر. وفي البيئة الفوضوية لهذه الحرب الأهلية، تمكن النزاريون من قلب الوضع ضدهم من أجل تطوير سلطتهم بشكل أكبر. وفي وقت لاحق، لم يكتفوا بالاحتفاظ بكثير من الحصون في سلسلة جبال زركوس، ومقاطعتَي خوزستان وفارس، ورودبار، وكوميس، وكوهستان وغيرها من المناطق الجبلية، وبدؤوا في التدخل بشكل مباشر في شؤون السلاجقة، وشجعتهم هذه النجاحات على الاستيلاء على قلعة شاه ديز في



أصفهان مركز السلاجقة بقيادة ابن عطاش. لقد تقدم الإسماعيليون كثيرًا لدرجة أنهم استغلوا الفوضى التي نشأت عن انتصار السلطان بركياروق على أخيه محمد تابار، وهزيمته، ومقتل مؤيد الملك، وأخذوا سرًّا مكانهم في جيش بركياروق والقصر. وبدأ رجال حسن الصباح الذين تمكنوا من التسلل إلى القصر والجيش، بالتجسس على ما يجري داخل القصر. وتمكن الإسماعيليون النزاريون من جذب عدد من الجنود السلاجقة إلى جانبهم. وبينما كانوا يهددون الجنود الذين لا يقبلون آراءهم بالقتل، زادوا من اغتيالات الشخصيات السياسية المهمة في تلك الفترة وقادتهم ووزرائهم وأمرائهم.

وتمكن الإسماعيليون، الذين تسللوا إلى جميع الوحدات العسكرية والإدارية داخل القصر السلجوقي، من جذب عدد من رجال الدولة إلى جانبهم. وحدثت أزمات خطيرة في المجتمع ورجال الدولة، وبدأ الجميع يشككون في بعضهم، بل واتهموا بعضهم بأنهم إسماعيليون. وبينما استخدم بعضهم هذا الوضع للحصول على وضع أفضل، أُبلغ عن عدد من الأبرياء للسلطان على أنهم إسماعيليون، وقُبض على عدد من الأشخاص وتمّ سجنهم. وكان من بين المعتقلين معلم المدرسة النظامية أبو الحسن علي بن محمد، وبمجرد إبلاغ بركياروق بأن المعلم كان إسماعيليًّا، اعتقله السلطان فورًا. ومع ذلك، كان هناك اثنان من العلماء المهمين في تلك الفترة هما القاضي أبو الفرج ابن السيبي



وأبو الوفاء ابن عقيل، وأُطلق سراح أبي الحسن علي بن محمد بعد أن قال القاضيان إن إيمانه قوي ولا يميل إلى الإسماعيلية.

نمت الفوضى داخل الدولة، إلى درجة أن الفصائل السلجوقية المعارضة لبركياروق بدأت في اتهام جيش السلطان بأنه إسماعيلي بأكمله. وفوق ذلك، زعموا أن الهجمات الإسماعيلية ضد رجال الدولة السلاجقة المعارضين نفذها أيضًا بركياروق، على الرغم من أن بركياروق نفسه كان تحت تهديد الفدائيين. وعندما تزايدت الشائعات بأنه قام بتجنيد 5000 إسماعيلي في جيشه في أثناء قتاله ضد أخيه، اشتبه السلاجقة في أن بركياروق كان إسماعيليًّا. وبينما كان أمراء بركياروق يخبرونه بأن الناس يتهمونه بالميل إلى الإسماعيلية، من ناحية أخرى، بدأ جنود أخيه السلطان محمد في إدانته أيضًا هو وجنوده بوصفهم إسماعيليين، لدرجة أن الجيش السلجوقي الذي انقسم قسمَين، بدأ يعبر عن ردود أفعاله بالتكبير في أثناء الحرب والهتاف "أيها الباطنية" لجيش بركياروق.

وإدراكًا لخطورة مشكلة الإسماعيليين، ذهب رجال الدولة إلى السلطان بركياروق وقالوا: "إذا لم نسحق هؤلاء الإسماعيليين الآن، فلن نتمكن من التغلب عليهم وتعويض الضرر لاحقًا. ومثلما يتهمك الناس بأنك إسماعيلي، فإن رجال محمد تابار وجنوده يصرخون في جنودنا: "يا



إسماعيليين" في أثناء الحروب" (ابن الأثير، 1987: 265).

لم يتمكن السلطان بركياروق، الذي كان في وضع صعب أمام الدولة والناس، من الاقتراب من أحد الجانبين، لذلك عبر عن موقفه بوضوح ووافق على اتخاذ إجراء مشترك ضد الإسماعيليين مع شقيقه سنجر، حاكم خراسان. وبينما بدأ بركياروق مذابح ضد الإسماعيليين في أصفهان وعدد من المسؤولين السلاجقة المشتبه في كونهم إسماعيليين، قتل سنجر كثيرًا من الإسماعيليين في كوهستان أو أخذهم كعبيد. حتى إن بركياروق هاجم خيمة الإسماعيليين بوحدة من الخيالة شارك فيها وقتل 300 شخص. ونجا الأمير محمد دوشمان زيار، الذي يقال إنه زعيمهم، من هذا الهجوم وهرب إلى كاكيويه. وكان يتنقل ليلًا ونهارًا بشكل متواصل، لكنه في اليوم الثاني ضلَّ طريقه وعُثر عليه وقُتل. وقد نُهبت ممتلكات وثروات الإسماعيليين، وصُودرت الأسلحة التي كانت تستخدم في الاغتيالات. ومن بين هذه الهجمات قُتل بعض الأشخاص الذين لا علاقة لهم بالإسماعيلية بعد الإبلاغ عنهم. وكان من بين القتلى نجل كيكوباد حارس قلعة تكريت، لكن والده لم يغير موقفه تجاه بركياروق وحصَّن القلعة وأصلحها. وفي حين أنه أمر بهدم مسجد المدينة الواقع قريبًا من القلعة حتى لا يتمكن الأعداء من الصعود إليها، فقد قام أيضًا بتحويل كنيسة في المدينة إلى مسجد يصلي فيه الناس. وأرسل نيابة عن السلطان بركياروق



رسالة إلى السفير في بغداد لمصادرة ممتلكات بعض أعيان وزعماء الإسماعيلية.

واصل الإسماعيليون الرد على موقف بركياروق القاسي تجاههم بالاغتيالات. وقد وصلت الاغتيالات إلى مستوى متقدم لدرجة أن أحد الإسماعيليين من سيستان هاجم السلطان بركياروق وأصابه في ذراعه لأنه عين وزيرًا معاديًا للإسماعيليين. وعندما تم استجواب الأشخاص الذين نظموا عملية الاغتيال، لم يرغبوا في الإجابة في البداية، لكن أحد الأشخاص ذكر أنه سيعترف عندما سمع أنه سيُلقى به تحت أقدام الفيل، لكن صديقه قال له: "سنُقتل على أي حال، على الأقل لا تكشف أسرارنا ولا تُسِئْ إلى أهل سجستان". وعندما سمع ذلك تراجع عن الاعتراف وقُتلا كلاهما (الراوندي، 1957: 142 -140).

لقد تمكن الإسماعيليون النزاريون من الحصول على الدعم من رجال الدولة السلاجقة، سرًّا وعلنًا، عبر وسائل مختلفة من خلال دعايتهم. ودعم رجال الدولة السلاجقة، مثل العلماء ورجال الدين والملوك والوزراء والأمراء، سرًّا أو علنًا الإسماعيليين النزاريين لأسباب مثل الخوف من القتل وتغيير المعتقد والطموح إلى السلطة وإقامة التحالفات. وعلى الرغم من أن الحكام السلاجقة اتخذوا بعض الاحتياطات ضد الإسماعيليين، مثل قتلهم وتعليقهم على أبواب القلعة ليكونوا عبرة للعالم، والقبضِ عليهم، فإنهم لم يستطيعوا منع النزاريين من اختراق التنظيمين المدني



والعسكري.

وأدى تغلغل الإسماعيليين النزاريين في الدولة ودعمهم من رجال الدولة والقادة إلى خلق اضطرابات في الحياة السياسية وفي المجتمع وفي تنظيم الدولة. ولأن بعض الناس حاولوا القضاء على أعدائهم الشخصيين والسياسيين باتهامهم بأنهم إسماعيليون، فقد نشأت اضطرابات خطيرة داخل المجتمع والدولة. وبينما فشل الإسماعيليون، الذين أسسوا بنية مستقلة داخل الدولة السلجوقية، في تدمير هذه الدولة، على الرغم من كل أفعالهم، فإنهم، مع ذلك، حافظوا على وجودهم حتى قُضي عليهم على يد المغول.



الفدائيون: الخط الرفيع بين الموت والقتل

على الرغم من عدم وجود معلومات دقيقة حول تدريبهم، فإن الفدائيين كانوا يعرفون جيدًا متى وأين يرشقون خناجرهم في صدر الضحية، وكانوا تتراوح أعمارهم بين 12 و20 عامًا، وقد ضحوا بأرواحهم وكانت لديهم نزعة انتحارية وكانوا شبابًا خطيرين للغاية. عملوا سرًّا بجوار ضحاياهم على هيئة سيُّاس أو طلاب أو خدم أو تجار. لقد عملوا وكانوا صبورين ومخلصين بما يكفي لانتظار الوقت المناسب لعدة أيام أو حتى أشهر. وفي أغلب الأحيان كانوا ينتظرون أشهرًا ويتمكنون من إخفاء هويتهم، وعندما يحين الوقت ينفذون عملية الاغتيال دون أن يرف لهم جفن.

وفي أثناء الاغتيال، حرص الفدائيون على عدم إصابة أي شخص آخر غير هدفهم. وعادةً ما كانوا يختارون عدم محاولة الهروب، بل يُقبض عليهم ويُقتلون على يد حراس الضحية. ولأن جرائم القتل التي ارتكبوها كانت بحق مسؤولين عسكريين ومدنيين، مثل الوزير والأمير والخليفة والإمام وغيرهم، وكان هؤلاء محميين من قبل عدد من الحراس، فإن ذلك يعني أن فرصهم في البقاء على قيد الحياة كانت منخفضة للغاية. لقد كونوا أيضًا قاعدة جماهيرية من خلال الموت بشجاعة بين الحشود. وبالخط الرفيع بين القتل والموت، كان الموت بالنسبة لهم لا يقل أهمية عن القتل. وبهذه الطريقة، ستصبح قضيتهم



أكثر تأثيرًا وسيزداد دعم حسن الصباح بين الأشخاص الذين أُعجبوا به. ولهذا السبب تم تمجيد الاغتيالات كعمل بطولي في قلعة آلموت، والإشادة بالشباب المخلصين الذين قاموا بهذه المهام لشجاعتهم وإخلاصهم، وتعليق أسمائهم وقائمة المهام التي أنجزوها في ساحة الشرف بآلموت وغيرها من القلاع، وتم تنظيم الاحتفالات لهم. وتضمنت هذه القوائم معلومات عن أسماء القتلى، وعدد الفدائيين، وفي أي تاريخ تم الاغتيال، وبأي طريقة.

كان البقاء على قيد الحياة بعد هذه المهمة محرجًا للغاية. وكان أهالي الفدائيين يعتقدون أن تضحية أبنائهم بحياتهم هي شرف لهم. وذات مرة، شعرت والدة فدائي بالخجل من عودة ابنها إلى المنزل دون أن يُصاب بأذى بعد إكمال مهمة خطيرة، فقصت شَعرها وصبغت وجهها باللون الأسود.

وقد تمت هذه الإجراءات أمام أكبر عدد ممكن من الشهود، وسط الحشود، في المساجد والأسواق والقصور وغيرها، لبثِّ الرعب وترهيب رجال الدولة، ولأن مقتل شخص واحد أمام الحشود كان سببًا في خوف ورعب مئات الأشخاص. كان الفدائي صبورًا، وينتظر الوقت المناسب بالتنكر بزي مختلف بجانب ضحيته لعدة أيام أو حتى أشهر، وعندما يحين الوقت، يغرس بدم بارد الخنجر دون تردد في صدر الضحية. لقد كانوا ناجحين في فنِّ ارتكاب جرائم القتل على سبيل العبادة والواجب. كان يُنظر إلى



اغتيالاتهم أو جرائم القتل السياسية على أنها شكل من أشكال النضال.

وكان الحراس يتنكرون تارة في زي مدرس يقوم بتدريس أطفال القصر في القلعة، وتارة أخرى في زي بائع يجلب متعلقات نسائية وفساتين لفتيات القصر، وطورا في زي طالب يحضر دروس مشاهير العلماء. لهذا السبب، كانوا يحاولون ارتداء ملابس تشبه عامة الناس قدر الإمكان لكيلا يجذبوا انتباه الجمهور. لقد تمكنوا من التعرف إلى بعضهم في كلِّ هذه السرية، إذ كانت هناك علامات على الملابس مفهومة لبعضها، وكانت هذه العلامات أصغر من أن يلاحظها الجمهور. فقط الإسماعيلي يمكنه التعرف على الشخص الإسماعيلي.

وكان الدعاة الإسماعيليون النزاريون يتنكرون في هيئة تجار وصلوا توًّا إلى المدينة، وكان الفدائيون يتنكرون في هيئة تجار أيضًا. على سبيل المثال، كان عدد قليل من الأشخاص الإسماعيليين يرتدون ملابس تجارية وتم إرسالهم إلى الموصل لقتل الأمراء والقادة هناك. وكان الغرض من ذلك منع المسيحيين واليهود من شغل مناصب إدارية عليا. وعندما لم يجدوا الفرصة لمهاجمة مَن أرادوا قتله، لجؤوا إلى الأساليب السرية والاحتيالية لاغتيالهم.

وقد تشاجر بعض الفدائيين الذين أُرسلوا إلى الموصل مع بعضهم في النزل. ولما سمع قتالهم مَن كان في الجوار، شكا إلى الأمراء. فألقى الأمراء القبض عليهم فورًا. وعندما



تم تعذيبهم، قال المسنُّ منهم: "لا داعيَ لتعذيبنا، نحن الثلاثة جئنا لقتلك. ذهب الرجال الثلاثة لقتل اليهودي في بابل. وذهب ثلاثة أشخاص آخرون لقتل أعضاء الديوان هناك" (أبو الفرق، 1945: 635). وعندها قُتل هؤلاء الأشخاص الثلاثة فورًا.



استخدام الحشخاش والنبيذ

هناك عدد من الأساطير في الروايات والأفلام حول استخدام حسن الصباح وأتباعه للخشخاش. حتى إن بعض الروايات تقول إن هناك حديقة سرية للجنة في قلعة آلموت، وإن نبات الخشخاش يُستخدم لتحقيق السعادة في هذه الجنة، إلا أن قصة حديقة الجنة لا تزال موضع نقاش بين الباحثين، كما لم يذكر أي كاتب إسماعيلي أو سني جاد أو أحد مؤرخي العصور الوسطى في تلك الفترة نبات الخشخاش. ولم يذكر الجويني ولا رشيد الدين، وهما من بين المصادر التاريخية المهمة التي تقدم معلومات عن الإسماعيليين النزاريين، استخدام الخشخاش. وتحظى روايات العالم الألماني أرنولد لوبيك بأساطير خاصة حول الحشاشين، كونها أول مصدر غربي يذكر الجرعة المخدرة التي أعطاها الصباح للدعاة النزارية.

وفي هذا الصدد يقول فرهاد دفتري إن النزاريين بطرُق اغتيالاتهم لاقوا شهرة كبيرة في العالم الغربي، كما أن شهرة حسن الصباح والمدافعين عنه بحياتهم، تحولت إلى قصص أسطورية في أوروبا العصور الوسطى. وأنا أميل إلى رأي دفتري. وفي واقع الأمر، لقد أضاف ماركو بولو إضافات جديدة إلى أسطورة الخشخاش التي رواها أرنولد لوبيك، ما أدَّى إلى إثارة الموضوع للاهتمام في كل من المنشورات الأدبية والمرئية. وبحسب ما قاله ماركو بولو، فإن حسن الصباح كان يختار بعض الشباب وفقًا لقدراتهم البدنية



ومهاراتهم القتالية وصفاتهم الحازمة ويدعوهم إلى المأدبة. ويخبرهم أن لديه القدرة على أخذهم إلى الجنة، وفي الوقت نفسه يعطيهم الحشخاش، فينامون فورًا ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، وبينما هم نيام، يأخذونهم من هناك ويذهبون بهم إلى حديقة الجنة. وعندما يستيقظ الشباب ويجدون أنفسهم في مثل هذا المكان الرائع، حيث يُحاطون بالسيدات والفتيات الصغيرات، ويُقدَّم إليهم الطعام والنبيذ مع مداعبة الفتيات لهم، ويرون أنهار اللبن والخمر، يظنون أنهم في الجنة حقًّا، ولا يرغبون أبدًا في المغادرة بمحض إرادتهم.

وبعد عودتهم يسألهم حسن الصباح: "أين كنتم؟"، فيقولون إنهم جاؤوا من السماء بكل طهارتهم. وإن هذه هي فعلًا الجنة التي أخبر عنها النبي محمد صلى الله عليه وسلم. لقد تأثر الشباب كثيرًا بهذه الكلمات وتمنّوا العودة إلى الجنة. فكان يخبرهم حسن الصباح: "يا بني، هذا أمر متعلق بنبينا محمد، فإنه سيأخذ معه إلى الجنة مَن خدم دينه. إنْ أطعتموني، فستنالون هذه النعمة" (ماركو بولو، 2003:212).

ثم يعدهم الصباح بأنهم سيدخلون الجنة إذا أنجزوا المهمة الموكلة إليهم، ويكلفهم بتنفيذ بعض عمليات الاغتيال. باختصار، في نهاية القرن الثاني عشر، بدأت الأحداث الغامضة بين الصباح وتلاميذه تثير الاهتمام في أوروبا. ومع فكرة ضمان دخولهم الجنة مباشرة إذا ماتوا



في أثناء محاولتهم القيام بواجبهم، ومع تنفيذ الاغتيالات، أصبح من المقبول أنهم استخدموا الخشخاش، مع مبالغة المؤرخين الغربيين. ومع انتشار الأساطير بشكل كامل، نُظر إلى القصص عن النزاريين، الذين أصبحوا مشهورين في جميع أنحاء أوروبا باسم (الحشاشين)، بوصفهم منظمة تستخدم الخشخاش وتنفذ الاغتيالات، على أنها حقيقية. هذه الأساطير، التي انتقلت من جيل إلى جيل، شوهت التاريخ الحقيقي. أما الإسماعيليون فبدلًا من الحفاظ على معارفهم وتعاليمهم الأدبية، سمحوا بتحريف هذه الأساطير واستخدموا التقية. وبسبب أسلوب الحياة التي يعيشونها في الخفاء، لم يكن من الممكن منع هذا الوضع، ونُسبت هوية مشوهة بشكل خاص إلى النزاريين.

ومن ناحية أخرى، فإن الكتّاب الغربيين، الذين لم يتمكنوا من فهم حقيقة قيام الفدائيين باغتيال ضحاياهم دون تردد، والامتثال لأوامر حسن الصباح على حساب حياتهم، أرجعوا الموضوع إلى الخشخاش. لقد اعتقد الفدائيون أن الأرض هي الجحيم، وأنهم إذا قاموا بواجبهم سيُولدون في حياة أفضل ويلتقون الله، وكانت الدوافع الطيبة والقيم المقدسة هي العوامل التي أدت إلى الاغتيالات. ولذلك فإنهم فعلوا هذه الأفعال إخلاصًا لعقيدتهم، وليس لأنهم كانوا يدخنون الخشخاش.

وكما ورد في الأبحاث التي أُجريت حول هذا الموضوع، فباستثناء عدد قليل من الكُتَّاب الغربيين في العصور



الوسطى، لا يوجد دليل قاطع على إدمان الفدائيين للحشخاش، وقد ظهر ذلك بوضوح في الاغتيالات التي نفذوها بأسلوب لا يرحم من أجل معتقداتهم.

لقد أسس حسن الصباح نظامًا قائمًا على الزهد في قلعة آلموت، لم يسمح باستخدام الحشخاش فحسب، بل كان لديه أيضًا اعتقاد يمنع استخدام النبيذ والاستماع إلى الموسيقى في القلاع. وحقيقة أنه أعدم ابنه محمد لأنه شرب الخمر، وأنه طرد شخصًا يعزف على الناي في القلعة فورًا، وأنه أرسل زوجته وبناته إلى قلعة جيردكوه وطلب منهنَّ مواصلة حياتهنَّ في الحياكة، يظهر أنه ملتزم بالشريعة، حتى لو كان ذلك بشكل رسمي فقط، وهو ما يوضح مدى تلفيق أسطورة الحشخاش.



الخوف من الموت والدروع

كانت الاغتيالات التي تتزايد يومًا بعد يوم تثير الخوف والذعر لدرجة أن رجال الدولة والأمراء والقادة والعلماء المعارضين لحسن الصباح لم يتمكنوا من الخروج دون ارتداء دروع تحت ملابسهم خوفًا من القتل، وقد تغلغل فدائيو حسن الصباح في جميع وحدات الجيش. وتمكن النزاريون من جذب عدد من الجنود السلاجقة إلى جانبهم. وبينما كانوا يهددون الجنود الذين لا يقبلون آراءهم بالقتل، زادوا من اغتيالات الشخصيات السياسية المهمة في تلك الفترة وقادتهم ووزرائهم وأمرائهم. وخلال هذه الفترة، لم يعد القادة والوزراء ورجال الدين الذين كانوا ضد الإسماعيليين يجرؤون على مغادرة منازلهم دون ارتداء الدروع أو الحصول على الحماية. في الحقيقة، وصل الخوف إلى أنهم اضطروا في كثير من الأحيان إلى المثول أمام السلطان مع حراس شخصيين وهم يرتدون الدروع. لم يكن هناك أمير واحد يجرؤ على مغادرة منزله دون حماية. كانوا جميعًا يرتدون قميصًا مدرعًا تحت ملابسهم. وعندما طلب أمراء السلطان بركياروق الإذن بالمثول أمام السلطان بالسلاح خوفًا من الهجوم عليهم، كان عليه أن يسمح لهم.

وفي معظم الأوقات، كانت هذه الدروع مفيدة، وقد نجا بعض الأشخاص بأعجوبة من الاغتيالات بفضلها. على سبيل المثال، كان صلاح الدين الأيوبي أحد الحكام الذين نجوا من الاغتيالات بفضل الدروع التي كان يرتديها. وقد



دبَّر رئيس الدعاة في المنطقة السورية راشد الدين سنان، خطة للقضاء على صلاح الدين الأيوبي، أخطر أعدائه، وأرسل أتباعه إلى معسكره يوم الجمعة عام 1174. لكن الاغتيال تم منعه من خلال القبض على الفدائيين. لكن بعد مرور عام، وخلال الفترة التي كان فيها صلاح الدين الأيوبي يحاصر شمال حلب، تعرض لمحاولة اغتيال للمرة الثانية على يد الإسماعيليين، لكنه نجا بسبب الدرع التي كان يرتديها.

وكانت مجموعة كبيرة من الأشخاص الذين تعرضوا للاغتيالات الإسماعيلية من رجال الدين السُّنَّة. وتم اختيار الضحايا بشكل خاص من بين علماء الدين والقضاة والمؤذنين والخلفاء الذين تحدثوا ضدهم بشكل سلبي. ويعد عبيد الله الخطيب، قاضي أصفهان، ومنافس الإسماعيليين الشرس، أفضل مثال على ذلك. وعلى الرغم من أن القاضي كان يرتدي درعًا وحوله حراس خاصون لأنه يعلم جيدًا الخطر الذي سيواجهه، فإنه أُصيب بجروح خطيرة على يد فدائي في أثناء صلاة الجمعة في مسجد همدان، وعلى الرغم من الدرع والحراس الشخصيين، فقد تعرَّض لغضب الإسماعيليين.

وفي الواقع، فإن هذه الدروع التي تم ارتداؤها والإجراءات الأمنية المتخذة هي دليل على عدم وجود أمن في الأراضي السلجوقية، سواء في القصر أو في الأماكن المزدحمة، وأن الإسماعيليين يختبئون جيدًا



ويمكنهم تنفيذ أعمالهم في أي مكان. وبينما أدت الاغتيالات إلى تعطيل السلام الاجتماعي، والخسائر في أرواح رجال الدولة الذين لعبوا أدوارًا نشطة وعارضوا الدعاية الإسماعيلية، فقد أدت أيضًا إلى انتشار الفوضى. وكانت الدرع التي يرتديها رجال الدولة حتى عند المثول أمام السلطان تظهر بوضوح انهيارَ الأمن، وضعفَ استخبارات الدولة السلجوقية، والبيئةَ التي فُقدت فيها الثقة بين الدولة وإدارييها.

لقد رأى نظام الملك الخطر الذي تتعرض له الدولة السلجوقية واتخذ إجراءات جادة لكشف المتسللين إلى الدولة والسيطرة على ما كان يحدث في الأراضي السلجوقية. ومن الواضح أن معظم المواضيع التي يتناولها في عمله (سياست نامه) تدور حول أهمية الاستخبارات وطريقة الإدارة والمسؤولين. وإدراكًا منه للخطر مسبقًا، أعلن نظام الملك حربًا جدية ضد الإسماعيليين وحاول حماية العقيدة السنية.

لقد ركز نظام الملك، كثيرًا على إنشاء وعمل الاستخبارات داخل الدولة السلجوقية، وذكر أنه يجب إرسال الجواسيس المتنكرين في زي التجار والمسافرين والصوفيين والفقراء إلى كل مكان لنقل جميع الأحداث التي حدثت في الأراضي السلجوقية إلى السلطان من أجل ضمان عدم بقاء أي شيء سرًّا تحت أي ظرف من الظروف. ومع ذلك، وعلى الرغم من كل هذه التدابير



والخطابات الاستخباراتية، تمكن الإسماعيليون بسهولة من التسلل سرًّا إلى جميع وحدات الدولة السلجوقية، والسيطرة على الدولة من الداخل، والاستيلاء على جميع المعلومات السرية، وتحويل عدد من المواقف لصالحهم. وفي أغلب الأحيان، عندما انكشف سرهم في إدارة الدولة، تمكنوا من القضاء على رجال الدولة الذين كانوا يعرقلونهم، من خلال التهديد والاغتيالات والمؤامرات المختلفة. ونظموا محاولة اغتيال، بدءًا من نظام الملك، الذي كان أكبر عائق أمامهم في هذا الصدد. وعلى الرغم من أن نظام الملك لاحظ ذلك مسبقًا واتخذ احتياطاته، فإنه لم يتمكن من منعها وقُتل بسبب الضعف الأمني.

لقد رأى حسن الصباح، الذي كان على علم بسياسات نظام الملك والجيش السلجوقي، أن الهدف الأساسي هو القضاء على الشخص الذي يعرقل الأنشطة الدعائية، أي نظام الملك، إلا أنه لم يتخذ تجاهه أي إجراء لفترة طويلة. وعندما كان نظام الملك في وضع صعب بسبب أحداث داخلية، تسلَّل الصباح إلى الدولة وحقق هدفه، بدعم من أعداء الوزير داخل الدولة. وأعطى حسن الصباح مهمة قتل نظام الملك إلى أبي طاهر الأرَّاني. وبينما كان السلطان ملكشاه ونظام الملك وتاج الملك وتركان خاتون عائدين من أصفهان إلى بغداد، جاء أبو طاهر الأراني ليلة الجمعة 16 أكتوبر 1092 إلى مكان يُسمى شاهنه في منطقة نهاوند، متنكرًا بزي صوفي، وسار أمام نظام الملك، الذي



كان ذاهبًا من مقر عمله إلى مكان إقامته بعد الإفطار، واقترب منه بحجة تقديم التماسه، وبينما كان الوزير يقرأ الالتماس، غرز الخنجر في صدره فجأة. ولكن بينما كان أبو طاهر الأراني يهرب، تعثر بحبل الخيمة وسقط فورًا، فأمسك به مَن كانوا هناك وقتلوه. ونُقل نظام الملك إلى خيمته. وبينما كان السلطان ملكشاه يهدئ الناس في مقره وذهب لزيارة نظام الملك، قال الوزير الذي يعتقد أن هذا الاغتيال تم بأمر السلطان: "يا سلطان العالم، لقد كبرتُ في العمل من أجل دولتك ودولة أبيك. لو أنك عزلتني من منصب الوزير ولم تأمر بقتلي". فأخرج السلطان المصحف وأقسم إنه لم يقم بمثل هذا الأمر قط وليس لدَيه علم به، وقال: "كيف أوافق على مثل هذا؟ أنت بركة ولايتي وفي مكان أبي" (علي سيفيم، 2000: 7).

ويُحكى أنه قبل مقتل نظام الملك بيوم جاءه أحد الصالحين في أثناء الإفطار فقال له ما يلي: "رأيتُ الليلة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء وأخذك، فلما تبعتُكما قال لي: "أيها الإنسان، ارجع إنني أريد نظام الملك." كما فسر نظام الملك هذا الحلم بأنه سيموت (ابن العديم، 1968: 56).

وقد ورد في بعض المصادر والأعمال البحثية حول تلك الفترة أن نظام الملك قتل بموافقة السلطان، وبتدبير تاج الملك وإشارة من تاركن خاتون. أرادت تاركن خاتون أن تجعل محمود، ابنها من السلطان ملكشاه، هو الحاكم. ونظرًا



لصغر سنه، كان نظام الملك ينوي جعل بركياروق، ابن ملكشاه من زبيدة خاتون وأكبر أبنائه سلطانًا، وحاول إقناع السلطان بذلك (ابن العديم، 1968: 56).

وبغض النظر عن سبب مقتله، فإن وفاة الوزير نظام الملك أحدثت تداعيات كبيرة على الشعب والجنود. وكتب الشعراء الذين بكوا على موته المراثي والأشعار. واهتزت كتلة هائلة من الجيش تزيد على الآلاف حزنًا وسخطًا. تمكن ملكشاه بنفسه من تهدئة هذه الكتلة في الجيش، من خلال ركوب الخيل والمشي بينهم وإلقاء خطابات مهدئة. وفي وقت لاحق، نُقل جثمان نظام الملك إلى أصفهان، ودُفن في مكان جميل على حافة النهر الكبير في منطقة كرَّان.



قوائم الاغتيالات المُعلَّقة في قلعة آلموت

كان الإسماعيليون يقضون على معارضيهم بالاغتيال، ويعلّقون قوائم المُغتالين على أسوار القلعة، وينظِّمون الاحتفالات بعد النجاح في عمليات الاغتيال المهمة، ولم ينسوا الثناء على الفدائيين. ولأن العمليات التي قام بها الفدائيون كانت لقتل القادة العسكريين والمدنيين من أعداء الإسماعيليين، المحميين من قِبل عدد من الحرّاس، فإن فرص نجاة الفدائيين كانت منخفضة للغاية، ولذلك مُجِّدت هذه الأعمال بوصفها أعمالًا بطولية. وكان الفدائيون الذين يقومون بهذه المهام، هم الشباب الذين أُشيد بشجاعتهم وتفانيهم من قِبل الإسماعيليين النزاريين، وكانت تعلَّق أسماؤهم وقائمة المهام التي أنجزوها في مكان مرموق بقلعة آلموت والقلاع الأخرى وتُقام لهم الاحتفالات.

وقد قدَّم رشيد الدين فضل الله الهمذاني والكاشاني، مؤرِّخَا تلك الفترة، قوائم اغتيالات الإسماعيليين النزاريين بشكل منفصل في أعمالهما. وفي هذه القوائم، كُتبت أسماء الأشخاص الذين قُتلوا واحدًا بعد الآخر، وعدد الفدائيين الذين قاموا بالاغتيال، وفي أي تاريخ وبأي طريقة نُفِّذ الاغتيال. ويبلغ عدد رجال الدولة المذكورين في قوائم الاغتيالات 74 شخصًا من الوزراء والأمراء والقضاة والولاة والخلفاء من كلِّ طائفة. وإضافة إلى ذلك، وبحسب الكاشاني، فقد اغتيل نحو ثلاثين ألفًا من رجال الدولة في إيران وخراسان والعراق ومازندران وأذربيجان،



وكانوا من الولاة والقضاة والأئمة وغيرهم. ومع ذلك، فمن المرجح أن عددًا من الذين قيل إنهم قتلوا، وفقًا للكاشاني، قد قتلوا فعلًا على يد آخرين، واتّهم النزاريون باغتيالهم. وبحسب المصادر التي أدرجت رجال الدولة المغتالين حسب وظائفهم، سنجد 10 وزراء، و24 أميرًا، وملكًا، ومحاسبًا، و7 قضاة، و3 علماء، و3 أئمة، وواليَينِ عسكريَّينِ، وسلطانَينِ، وخليفتَينِ، وخادمًا، وقاضيًا، ونائبًا، و3 رؤساء، و5 ولاة، و8 مفتين.

نجحت هذه الاغتيالات، باستثناء محاولة اغتيال السلطان بركياروق والوزير أحمد بن نظام الملك. وفي قائمة اغتيالات أخرى، ذُكِر من بين الأسماء سبعةٌ من السُّنَّة، وأربعة مسيحيين، وثلاثة من الإسماعيليين الفاطميين، ودرزيان، وشيعي إمامي واحد. ولذلك، فإن ضحايا النزاريين لم يكونوا من السُّنَّة فقط، بل أيضًا من المسيحيين وأبناء الجماعات الشيعية الأخرى.

وكان الوزراء هم الفئة الأهم التي استهدفها حسن الصباح وخلفاؤه داخل الدولة السلجوقية. ولأن السلاطين السلاجقة قاتلوا الإسماعيليين غالبًا من خلال وزرائهم، فقد استُهدف الوزراء بشكل مباشر. وفي الواقع، يظهر ذلك بوضوح في مثال نظام الملك الذي مارس عددا من الضغوط على الإسماعيليين. وإلى جانب نظام الملك، هناك وزير سلجوقي آخر قُتل، وكان وزيرًا لسنجر، وهو الكاشاني. دخل الكاشاني في صراع جدي مع الإسماعيليين



وأمر بقتلهم أينما قُبض عليهم، وبنهب بضائعهم وأسر عائلاتهم. وقد أرسل حسن الصباح، الذي لم يغض الطرف عن هذا الهجوم، اثنَين من رجاله لاغتيال الوزير. تسلل الحراس إلى القصر بصفتهم سائسي الخيول في الإسطبل، وتمكنوا من كسب تأييد الجميع من خلال التظاهر بالتدين، وبدؤوا في انتظار الوقت المناسب لاغتيال الوزير.

وطعنوا الوزير الذي دخل الإسطبل ليختار حصانًا ليهديه للسلطان سنجر بمناسبة عيد النيروز، وهو يفحص الخيول (1127م). وبالمثل، قُتل فخر الملك، وهو وزير آخر لسنجر وابن نظام الملك، بخنجر أحد الفدائيين وهو يقرأ (1106-1107م). كما قُتل عبد الرحمن سميرمي، وزير زبيدة خاتون والدة السلطان بركياروق، بالأساليب نفسها على يد إسماعيلي اقترب منه، وقُبض عليه عندما فشل في الهروب.

وبلا شك، فإن اغتيال أحمد بن نظام الملك، وزير محمد تابار، على يد بعض الفدائيين، كان بسبب رغبتهم في الانتقام من السلطان والوزير اللذَين عادا من حملة على قلعة آلموت، وهجموا على الوزير بالخناجر. لكن الوزير نجا من هذا الهجوم مصابًا بجروح عديدة. وهناك وزير مهم آخر، وهو أبو الفضل، من بين الذين اغتالهم الإسماعيليون. وقد اغتيل نتيجة تعاون الدرجيزي والإسماعيليين؛ لأنَّ أبا الفضل لم يرغب في أن يكون الدرجيزي، الذي كان



متعاونًا مع الإسماعيليين النزاريين، وزيرًا في العراق. وبحسب الروايات، عُيِّنَ أحد الفدائيين سائس خيول للوزير. وفي أحد الأيام، عندما جاء أبو الفضل إلى الإسطبل لتفقد الخيول، انتهز الفدائي اللحظة المناسبة، وأخرج الخنجر الذي كان يخفيه في جبهة الحصان، وقفز وطعن الوزير (1127).



السمات المشتركة للاغتيالات

عند دراسة الاغتيالات الإسماعيلية بشكل عام، تظهر بعض النقاط المشتركة. وبالنظر إلى الأشخاص الذين اغتالوهم في هذا السياق، نجد أنه تم اختيارهم بشكل خاص. ونُفِّذت هذه الاغتيالات أمام أكبر عدد ممكن من الشهود، وسط الحشود، في المساجد مثلًا، وفي الأسواق والقصور وغيرها، ليرهبوا الناس وتكون هذه الاغتيالات عبرة لرجال الدولة والجماهير، لأن اغتيال شخص واحد أمام الحشود من شأنه أن يسبب الخوف والرعب لمئات الأشخاص، فتصبح قضيتهم أكثر صخبًا. وقد تم تكليف الفدائيين بمهمة تنفيذ عملية الاغتيال داخل التنظيم. وكان الخنجر هو السلاح المفضل في الاغتيالات والأكثر ترجيحًا، إذ من السهل حمله وإخفاؤه والاتصال الوثيق بالضحية عندما يحين الوقت.

ومن السمات المشتركة الأخرى للاغتيالات، العمليات التي نُفِّذت على سبيل الانتقام والتحذير. وفي واقع الأمر، فإن الهجمات على علماء الدين السُّنَّة الذين تحدثوا ضد الإسماعيليين أو عارضوهم في مساجدهم هي أفضل الأمثلة على ذلك.

كان الفدائي عادة ما يقترب من ضحيته دون جذب الانتباه، لأسباب مثل طلب الصدقة أو الدعاء، أو إحضار رسالة، وفي أثناء طعن الضحية بالخنجر، لم يكن الفدائي



يهرب أبدًا، وكان حراس الضحية يهاجمونه ويقطعون رأسه فورًا ليكون عبرة للعالم ثم يحرقونه. على سبيل المثال، يروي ابن القلانسي اغتيال الأمير مودود على النحو التالي: "في سنة 1114-1113، جاء الأمير مودود مع مُربّيه من معسكره إلى المسجد في السهل خارج باب الحديد. وبعد أن فرغ من صلاته وأدى النافلة خرج مع مُربّيه. وكان حوله أهل الديلم والأتراك وأهل خراسان وشباب وقناصة مسلحون بالخناجر والأسلحة المختلفة. وعندما وصلوا إلى باحة المسجد، خرج رجل دون أن يلفت انتباه أحد، واقترب من الأمير مودود كأنه سيدعو له ويطلب صدقة. وسرعان ما أمسكه من الحزام وطعنه بخنجره تحت السرة مرتَين. وبينما كان الفدائي يطعن طعنته الثانية، انهالت عليه السيوف من جميع الجهات، وضُرب بجميع أنواع الأسلحة، وقُطع رأسه ليُعرف من هو، ولم يتمكنوا من التعرف عليه، ثم أُلقي في النار (ابن القلانسي، 2015: 96).

كما كان الفدائي الذي ينفذ عملية الاغتيال يتبع ضحيته لأيام أو حتى لأشهر، ويرتدي ملابس مناسبة، ويتجنب الحركات التي تلفت الانتباه، وينفذ مهمته في الوقت المناسب. وكان من المستحيل أن يهرب الفدائي الذي ينفذ عملية اغتياله بين الحياة والموت. وبمساعدة الإسماعيليين المختبئين في وحدات مهمة في الدولة، كان يتولى مهمّات قريبة من ضحيته، كما نرى في عدد من



الاغتيالات، ويكتسب الثقة كحارس أو سائس أو خادم، وينتظر الوقت المناسب، دون أن يلفت الانتباه، بلفظ أو سلوك، وفي أغلب الأحيان كان يقفز ويطعن الخنجر في صدر ضحيته بحركة مفاجئة.



فخر الدين الرازي والبرهان القاطع

يعد فخر الدين الرازي، الذي عاش في القرن الثاني الميلادي، أحد العلماء والمفكرين البارزين في علوم الكلام، والتفسير، والعربية، والفارسية، والمنطق، والطب، والرياضيات، والفلك. وقد كان فخر الدين الرازي، صاحب حجة قوية، ودعا كثيرين من أهل البدع إلى مذهب أهل السنة.

وقد انتقد بشكل خاص وجهات النظر الشيعية والإسماعيلية بشدة، وأعلن الحرب على الإسماعيليين والكرامية. وبسبب خطابه الفعال والحماسي، حضر مجلسه العلمي الناس من العامة وطلابه، كما حضر الوزراء والأمراء أيضًا. وقد حصل فخر الدين الرازي على ثروة كبيرة هي الاحترام الذي تلقاه من السلاطين، وكان لديه 50 حارسًا تركيًّا، لأنه كان لديه كثير من الأعداء بسبب انتقاداته للإسماعيلية. وبحسب الروايات، فإن الذين لم يحبوا فخر الدين الرازي كانوا ينشرون سرًّا شائعة أنه إسماعيلي. ولكي يتخلص من هذه الافتراءات اعتلى المنبر في الري وألقى خطبة ينتقد فيها الإسماعيليين بشدة. وقد أرسل حسن الصباح إليه فدائيًا تظاهر بأنه تلميذه وحضر دروسه لمدة سبعة أشهر. وذات يوم وجد فخر الدين الرازي وحده في غرفته، فدخل عليه وأغلق الباب وهاجمه وألقاه أرضًا، ثم وضع الخنجر على صدره. قال له فخر الدين الرازي: "ماذا تريد أن تفعل بي؟"، فقال: "أريد أن



أشق صدرك". فقال الرازي: "ولماذا؟" قال: "لأنك شوهتَ سمعة الإسماعيليين أمام الجميع". وتوسل الرازي للفدائي لكيْ لا يقتله حياته وأقسم إنه لن يتحدث ضدهم.

وبعد هذا التهديد، توقف فخر الدين الرازي عن الكلام ضد الإسماعيليين. وعندما سأل أحد طلابه عن التناقض في كلام فخر الدين الرازي عن الإسماعيليين، أجاب الرازي ساخرًا بقوله: "لأن عندهم البرهان القاطع" (أديجوزيل، 2014: 33)، في إشارة إلى خطورة الخناجر. وكما يتبين من هذه الحادثة فإن المدافعين عن الإسماعيلية تسللوا إلى كل مكان وأوضحوا سرًّا أنهم مخلصون لقضيتهم إلى درجة قيامهم بالمهمة الموكلة إليهم على أكمل وجه، وأن الخنجر كان دليلًا قاطعًا.



الزنازين والمجازر في أصفهان

كانت أصفهان، عاصمةُ الدولة السلجوقية التي يتغير هيكلها العرقي والديني باستمرار، واحدةً من مدن القرون الوسطى المهمة من حيث التجارة والثقافة والدين. وقد بدأت أصفهان، التي كان غالبية سكانها من الآريين الزرادشتيين في فترة ما قبل الإسلام، في التحول إلى الإسلام سريعًا مع سيطرة العرب المسلمين على المدينة وقبول العقيدة السنية في جزء كبير منها. وكان جزء كبير من أهل السنة في أصفهان في القرون الأربعة الأولى من العصر الإسلامي ينتمون إلى المذهب الحنبلي.

وبين القرنَين العاشر والحادي عشر، ظهر المذهبان الحنفي والشافعي لدى جزء كبير من السكان. ومع مرور الوقت، ومع تزايد أعداد الشيعة في المدينة، زادت الأنشطة الإسماعيلية بشكل خاص، واستمرت الصراعات الطائفية في التزايد في مدينة أصفهان. وكانت هذه المدينةُ، التي أصبحت العاصمة في عهد الحاكم السلجوقي السلطان ملكشاه، أحد المراكز الدعائية المهمة للإسماعيليين. كما هو معروف، ففي القرن الحادي عشر انتشر الفاطميون في منطقة جغرافية واسعة، من المركز في مصر حتى إيران والحجاز واليمن والعراق. وبينما تولى السلاجقة قيادة العالم الإسلامي السني في ظل الصراع السني الشيعي المستمر بين الخلفاء الفاطميين والعباسيين، كانت الإسماعيلية إحدى أهم القضايا التي كان عليهم التعامل معها. وإضافة إلى



النضال العسكري ضد الفاطميين في جميع المناطق، وخاصة في إيران، قام السلاجقة أيضًا بأنشطة فكرية وعلمية. وإضافة إلى ذلك، اهتزت السلطة المركزية للدولة بسبب الهجمات الصليبية والصراع على السلطة والتمردات.

ومن بين كثير من القضايا الأخرى، كانت الحركات الشيعية إحدى المشكلات الرئيسة للدولة السلجوقية، وحاولت الدولة اتخاذ الاحتياطات اللازمة في هذا الصدد. وقد أثرت الدعاية والأنشطة التي قام بها الإسماعيليون النزاريون، الذين حاولوا الانتشار بمفردهم بالانفصال عن الإسماعيليين الفاطميين، في الناس، ووصلت إلى مستوى عرقلة الدولة والنظام الاجتماعي. وقد أعاد النزاريون هيكلة تنظيمهم بسرعة كبيرة، خاصة في أصفهان، وتمكنوا من جذب انتباه الحكام والوزراء السلاجقة بالأعمال غير العادية التي قاموا بها. لقد تسببوا في أضرار جسيمة للدولة والمجتمع السلجوقي من خلال دعايتهم الفكرية والعملية.

بدأت البنية الإسماعيلية في أصفهان خلال الفترة الإسماعيلية الفاطمية، واستمرت بطريقة مستقرة ومكثفة وأكثر تخطيطًا خلال الفترة الإسماعيلية النزارية. وكان عبد الملك بن عطاش، الذي كان له مقر سري في أصفهان، عاصمة السلاجقة، في أوائل سبعينيات القرن العاشر، بمثابة الزعيم الإسماعيلي. وقد تولى مسؤولية الحركة الإسماعيلية في منطقة واسعة من وسط كرمان إلى



أذربيجان في الغرب. وعندما جذبت أفعاله انتباه الإدارة السلجوقية، اضطر إلى الفرار إلى الري. وافق داعي المنطقة الإيرانية عبد الملك بن عطاش على دخول مذهب حسن الصباح زعيم الحركة الإسماعيلية النزارية الذي انفصل عن الإسماعيليين الفاطميين في أصفهان وأنشأ تنظيمًا جديدًا عندما جاء إلى الري، وشارك في تنظيم الدعوة.

بعد ذلك، ذهب حسن الصباح، الذي بدأ نشاطه لخدمة القضية الإسماعيلية الفاطمية منذ عام 1072، إلى مصر وبقي هناك لمدة ثلاث سنوات، وبعد أن أكمل تعليمه عاد إلى أصفهان عام 1081. وعلى مدى السنوات التسع التالية، سافر إلى عدد من مناطق إيران كداعٍ إسماعيلي، ودعا نيابة عن نزار، ابن الخليفة الفاطمي المستنصر. قام الصباح تدريجيًا بتطوير خططه في أصفهان وما حولها لشن انتفاضة مباشرة ضد الحكم السلجوقي. وبينما واصل دعايته باسم نزار، خاصة في المناطق الجبلية في إيران، بدأ يبحث عن مركز متين لنفسه.

وقد وجد حسن الصباح، الذي كان تحت أعين الإدارة السلجوقية، الحلَّ في الذهاب إلى منزل صديقه أبي الفضل في أصفهان دون أن يراه أحد. وواصل خططه الدعائية السرية بالاختباء في هذا المنزل لفترة. وفي أثناء إقامته في أصفهان، كان يتحدث باستمرار عن قضيته الجديدة بطريقة متحمسة وحازمة للغاية في محادثاته مع صديقه، وبعد أن اشتكى من تعصب السلطان وضغط كبار المسؤولين، قال:



"يا للأسف! لو وجدتُ لنفسي أنصارًا لقلبتُ هذا البلد رأسًا على عقب" (الجويني، 1999: 1339).

وبسبب هذا القول، ظنَّ أبو الفضل أن توازن حسن الصباح العقلي قد تدهور بسبب التعب الشديد والخوف والقلق وقضاء أيام خطيرة، وأعد له الأطعمة والمشروبات المقوية للعقل. وعندما رأى حسن الصباح هذه الأطعمة، فهم على الفور ما كان يفكر فيه أبو الفضل وهرب من أصفهان ثم استقر في قلعة آلموت ولم يغادرها أبداً لمدة 35 عاماً، وتمكن من مواصلة قضيته في أجزاء كثيرة من إيران، خاصة في أصفهان والري. وبفضل الهيكل الذي أسسه بدعاية عسكرية جديدة للغاية في الأراضي السلجوقية، تمكن من أن يكون فعالًا في الجغرافيا السلجوقية لمدة 166 عامًا وهدد العاصمة أصفهان.

بعد الاستقرار في آلموت، منح حسن الصباح عبد الملك بن عطاش، منصب داعي أصفهان الرئيس، وقُبِل زعيمًا للجماعة الإسماعيلية في أصفهان. ودون أي تأخير، أنشأ ابن عطاش دار دعوة قريبًا من أصفهان وجلب ثلاثين ألف شخص في المنطقة إلى الإسماعيلية النزارية. وفي الوقت نفسه، جمع الضرائب لتعزيز خزانته الخاصة. وفي وقت لاحق، تمكن بطريقة أو بأخرى من التسلل إلى قلعة شاه ديز، إحدى قلاع السلاجقة الكبيرة والمهمة، الواقعة قريبًا من أصفهان، والاستيلاء على القلعة سرًّا. وعندما بدأ رجال ابن عطاش، الذين لجؤوا إلى وسائل غير مشروعة



في أصفهان وضواحيها، بقطع الطرق وقتل الضعفاء والاستيلاء على ممتلكات الناس وفرض الضرائب، أثار ذلك اضطرابات داخلية وخارجية، ووضع أهل المنطقة في حالة من الفوضى الشديدة.

عندما استولى النزاريون على قلاع السلاجقة واحدة تلو الأخرى، وكثرت عمليات الاغتيالات، قامت إدارة السلاجقة، إضافة إلى العمليات العسكرية، بهجمات مكثفة للقضاء على النزاريين. وبدأ السلطان بركياروق، سلطان تلك الفترة، مجازر ضد إسماعيليّي أصفهان. وفي حين أن العمل المنظم للنزاريين والاغتيالات المنسوبة إليهم، التي لاقت استحسانًا واسعًا، وضعت الدولة السنية على رأس التهديدات التي يتعرض لها السلاجقة، فإنهم أصبحوا مجتمعًا منبوذًا من قِبَل الأغلبية السنية، وخاصة الإدارة السلجوقية؛ لأن تصرفات حسن الصباح وخلفائه لم تحاصر السلطة المركزية فحسب، بل غيرت التوازنات السياسية، وقطعت طرق التجارة، وجباية الضرائب من الناس بطرق غير مشروعة، وما إلى ذلك. وبمثل هذه التصرفات، فإنها وضعت الدولة والشعب تحت تهديد اجتماعي واقتصادي خطير.

وكما هو معروف، فإنَّ أولى هجمات الإسماعيليين داخل الدولة السلجوقية كانت أحداث أصفهان ومقتل المؤذن قبلَ الاستيلاء على آلموت. وقد وضعت هذه الحادثة الدعاة الإسماعيليين والإدارة السلجوقية الكبرى وجهًا



لوجه لأول مرة. واجتمع في يوم العيد ثمانية عشر شخصًا من الإسماعيليين وأدوا صلاة العيد. وإضافة إلى ذلك، كان هذا الحدث بمثابة عمل عبّر فيه الإسماعيليون بشكل جماعي عن حضورهم، وظهروا لأول مرة، لدرجة أن أمير البلدة، الذي سمع بهذا الإجراء، أمر باعتقال هؤلاء الأشخاص، ثم أطلق سراحهم.

وبحسب الروايات، فقد دعا الإسماعيليون مؤذنًا يعيش في أصفهان للانضمام إليهم. ولكن عندما رفض تلبية هذه الدعوة، قتلوا المؤذن، خوفًا من أن ينكشف أمرهم. وعندما سمع نظام الملك بالحادثة، أصدر أمرًا فوريًّا بالقبض على المتهمين بقتل المؤذن. كما قُتل نجار يُدعى طاهر، كان يُشتبه في أنه قاتل، وسُحب من قدمَيه، وعُرض في شوارع أصفهان. وأدى مقتل النجار الإسماعيلي إلى وضع الطرفَين وجهًا لوجه، وبدأت سلسلة من الأحداث المتبادلة. وفي حين أن الاغتيالات المستمرة والقضاء على كبار رجال الدولة والعلماء ورجال الدين الذين قُتلوا واحدًا تلو الآخر، أفقدت إدارة الدولة السلجوقية السلطة، فقد دفعت السلاجقة إلى تنفيذ استراتيجية مختلفة عن المعارك الضارية والحصارات التي لم يعتادوها، واتُّخذت إجراءات أكثر صرامة ردًّا على الاغتيالات.

أدى مقتل علماء ورجال دين مهمين من السُّنَّة، الذين يحظون بإعجاب واحترام الجماهير، إلى رد فعل اجتماعي من قِبَل الناس في شوارع أصفهان. والقاسم المشترك



بين هذه الاغتيالات التي تمت في أصفهان أنها ارتكبت وسط الحشود، وكان لها تأثير كبير داخل الدولة والمجتمع؛ لأن هذه الاغتيالات التي ارتكبت في العاصمة السلجوقية أصفهان هزت الثقة في الدولة.

وقد وصل الصراع السني الشيعي في أصفهان إلى أبعاد لم تلحق أضرارًا جسيمة بالناس فحسب، بل أيضًا بالنسيج المعماري للمدينة، وترك جزءًا كبيرًا من أصفهان في حالة خراب. وقد وصف الرحالة والعالم العربي الشهير ابن بطوطة ما رآه في أثناء مروره بمدينة أصفهان في رحلته على النحو التالي: "من المدن الكبيرة والمبهرجة؛ إلا أن جزءًا كبيرًا منها لا يزال مدمرًا بسبب القتال والصراع بين أهل السنة والشيعة. وهذا الخلاف مستمر حتى اليوم. ولا يتراجع أيّ من الطرفَين عن القتال" (ابن بطوطة، 2000: 479).



دولة أم منظمة أم جماعة؟

هناك صعوبات مفاهيمية ونظرية في تصنيف المجموعات الدينية. إن تسمية الدين والمجموعات الفرعية من الدين وفقًا للأفعال التي يقومون بها تعد مشكلة خطيرة. وفي واقع الأمر، عندما يتم فحص الإسماعيليين النزاريين، إنْ كانوا جماعة أم دولة أم تنظيما، نواجه سؤالًا مهمًّا حول ما يُطلق على (الإسماعيليين النزاريين). ولئن كانوا في عدد من المصادر والأعمال البحثية معرَّفين بصفات مثل: الدولة، الجماعة، الفرقة، الطائفة، التنظيم، الحركة، فإنّ الإسماعيليين النزاريين لم يتمكنوا من إقامة دولة كاملة، وفي الوقت نفسه، تجاوزوا مذاهب الطائفة الإسماعيلية، وجاؤوا بمذاهبهم الخاصة، واختاروا المناطق الجبلية موقعًا لهم ونفذوا اغتيالات مختلفة. ومن المثير للجدل تحديد المصطلح الذي يجب استخدامه للإسماعيليين النزاريين، الذين لم يصبحوا دولة، وحافظوا على وجودهم كدولة داخلية ضمن الدولة السلجوقية بسبب استيلائهم على بعض المناطق في الأراضي السلجوقية.

وبينما يتم التعامل مع الإسماعيليين على أنهم (دولة) في بعض المصادر والأبحاث، يتم وصفهم، نتيجة لذلك، كتنظيم أو جماعة أو تنظيم إرهابي في مصادر أخرى. وهذا يختلف باختلاف وجهة نظر الباحثين. فَمَن رأى شرعية وجودهم وصفهم بالتنظيم والدولة، ومن رأى عكس ذلك وصفهم بالتنظيم الإرهابي. وفي حين أن



الإسماعيليين الحاليين أو الكتّاب يرونهم (دولة)، فإن الذين يعارضونهم يرونهم تنظيمًا يمارس أنشطة غير مشروعة. وفي هذا السياق، من المفيد فحص عملية تشكُّل الإسماعيليين النزاريين من خلال النظر أولًا إلى مدى توافقهم مع تعريف الدولة وعناصرها. وكما هو معروف، فإن الدولة هي كيان قانوني تشكله أمة منظمة سياسيًّا.

العناصر التي تتكون منها الدولة تقوم على ثلاثة أسس رئيسة: المجتمع البشري، والأرض، والسيادة. ولأن مَن سيقيم الدولة لن يستطيع أن يقيمها بمفرده، فإن هذا الشخص يحتاج إلى أشخاص آخرين أولًا. ومن ثم يجب أن يكون هذا الشخص قادرًا على حشد الناس وإقناعهم من خلال ممارسة الضغوط والأفكار المختلفة عليهم. وقد اتبع حسن الصباح مؤسس الحركة الإسماعيلية النزارية هذا العنصر، وأنتج أفكاره وآراءَه في إطار المذهب الديني الذي قام على إمامة نزار، وتمكن من جمع الناس حوله من خلال مخاطبة غير الراضين عن الإدارة الحالية، فوجد مؤيدين أولًا بين القبائل والقرويين، ثم بين أهل المدينة والحرفيين، وحتى بين مسؤولي الدولة الحاليين.

إن الشخص الذي يريد إنشاء دولة، سيحاول حتمًا تحرير قطعة أرض تحت سيادة دولة أخرى من سيادة تلك الدولة وإقامة سيادته عليها، وهو العنصر الثاني المطلوب لقيام الدولة. وفي الواقع، وفي هذا السياق، انطلق حسن الصباح بفكر ديني، وجمع أنصاره حوله بفكرة إنقاذهم



من الحاكم غير الشرعي، ونجح في خلق منطقة مشتركة، وإن كانت متفرقة، في المناطق الجبلية. وأنشأت السيادة من خلال إنشاء منطقة حكم ذاتي حيث وضع قواعده. وبذلك استكملت العناصر اللازمة لتشكيل الدولة. وقد اكتسبت سيادتها غير المتنازع عليها على قطعة معينة من الأرض. وعلى الرغم من أن سيادتهم لم تعترف بها السلطة السلجوقية، فإنّ النزاريين تمكنوا من الاستمرار في الوجود، بل ومن فرض وجودهم على القوى الاستبدادية الأخرى. وفي النهاية، هل هي دولة أم تنظيم أم طائفة... إلخ؟ الجواب العام على مثل هذه الأسئلة هو أن الحركة التي بدأها حسن الصباح بهوية دينية وأيديولوجية، تحولت إلى تنظيم مسلح من حيث الأساليب الدعائية التي طبقها، وأصبحت دولة مستقلة حافظت على وجودها لفترة طويلة ضمن بنيتها التحتية الاقتصادية والاجتماعية الراسخة.



مكتبة آلموت والكتب المحروقة

لم يبقَ سوى عدد قليل جدًّا من كتب مكتبة آلموت حتى يومنا هذا. والسبب الأساسي لذلك هو حرق الكتب التي تنتمي إلى المذهب الإسماعيلي. وقد أُحرقت هذه الكتب لأول مرة على يد جلال الدين حسن زعيم آلموت، نتيجة إصلاحاته التي قامت على إظهار التقرب من أهل السنة ومحاولاته لإخضاع عقيدة إعلان القيامة لتفسير جديد.

كان أهل قزوين، الذين كانوا من أتباع المذهب السني، يشككون في تقرُّب جلال الدين حسن وشعبه من المذهب السني. وبطريقة ما، ومن أجل تجديد الثقة المتبادلة، أرسل أهل كاشان علماء الدين من قزوين لتفقد مكتبة آلموت. وقام علماء الدين الذين ذهبوا إلى القلعة بفصل الكتب المتعلقة بالمذهب الإسماعيلي، وقدَّموها إلى جلال الدين حسن. ومن أجل اكتساب سمعة طيبة بين حكام السنة والناس، أمر جلال الدين بحرق جميع الكتب المحفوظة أمام أهل قزوين. ومع حرق الكتب، دُمِّر جزء كبير من التاريخ والمعتقد الإسماعيلي النزاري. لكن هذا التدمير لم يكن النهاية؛ لأن المغول دمروا مكتبة آلموت بعد ذلك بإحراقها.

وفي أثناء هجمات المغول، تم تسليم المكتبة إلى الوزير عطاء ملك الجويني لتفقدها. وبعد أخذ الأشياء الضرورية



من المكتبة، قام الجويني بإحراق جميع الكتب المتعلقة بالدعاية والمعتقد الإسماعيلي. ومن فترة آلموت، لم يتبقَّ سوى فصول بابا سيدنا السبعة التي كُتبت حوالي عام 1200، ومؤلفها غير معروف، وبعضِ الأعمال المنسوبة إلى نصير الدين الطوسي.



شبكة الدعاية النزارية والصليبيون

استولى الصليبيون على الأراضي السورية عام 1097، وأنشؤوا دويلات في مناطق مثل أورفا والقدس وطرابلس، ما أدى إلى تغيير خطير في التوازنات السياسية في المنطقة، وكان له آثار إيجابية وسلبية على الجماعات السنية والشيعية. وقد غيَّرت الحملات الصليبية ميزان القوى الفعالة في المنطقة، وأحدثت فوضى كبيرة في المنطقة للإسماعيليين النزاريين والنصيريين والدروز السوريين، الذين كانوا ينشطون بشكل خاص في المنطقة ويحاولون الوصول إلى السلطة. أما الصراع ضد الفرنجة الذين اكتسبوا السلطة في المنطقة، فقد بقي خارج الصراع السني الشيعي، وتحول إلى صراع صليبي إسلامي. ولعب الإسماعيليون النزاريون دورًا رئيسًا على المستويَين السياسي والطائفي. وبينما تعاونوا أحيانًا مع الفرنجة حتى نهاية الحروب الصليبية، فقد اتخذوا أحيانًا موقفًا مهددًا للفرنجة.

وكانت السمة المشتركة للحركات الشيعية في المنطقة هي الحماية والدفاع ضد كل القوى التي من شأنها أن تشكل خطرًا عليها، سواء أكانت سنية أم صليبية. وفي الواقع، ونتيجة تعاون بعض هذه الحركات الشيعية مع الصليبيين ضد الفرق الإسلامية الأخرى، فقد أدى ذلك إلى تصعيد الصراع السني الشيعي، ما أدى إلى مواجهة الحركات الشيعية في ما بينها، ما أثر سلبًا على الدعاية لكل منهم. ومن بين هذه الجماعات الشيعية، قاتل الإسماعيليون في



المنطقة ضد الصليبيين والقوى الأخرى بشراسة وحنكة عسكرية.

لقد تركت الحروب الصليبية بصماتها على العصور الوسطى. وخلال هذه الحروب، تم استهداف السنة والشيعة معًا، بشكل خاص من قبل الفرنجة. وعندما ننظر إلى الأمر، يمكن ملاحظة أن الجماعات السنية والشيعية، وخاصة الشيعة الإمامية في سورية، قد طورت شعورًا بالوحدة وشكلت وحدة عسكرية وسياسية بعيدًا عن التقاليد الدينية المختلفة. وفي الوقت نفسه، أحدث الصليبيون الذين قدموا إلى المنطقة تأثيرًا مزدوجًا من خلال تقسيم وتوحيد المجموعتَين الإسلاميتَين. وقد حقّق الإسماعيليون النزاريون على وجه الخصوص نجاحًا كبيرًا من خلال الدور الذي لعبوه في العملية السياسية، على الرغم من أن نفوذهم والقلاع التي كانوا يملكونها خلال الحروب الصليبية كانت صغيرة.

وكان الإسماعيليون النزاريون، الذين لعبوا أدوارًا مهمة وفعالة خلال الحروب الصليبية، هم الفرع الشيعي الذي لا يزال موجودًا حتى اليوم، وينسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق. لقد كانت الإسماعيلية في فترتها المبكرة فوضوية ومظلمة، وانتعشت من جديد مع الدولة الفاطمية في بداية القرن العاشر، ومع وفاة المستنصر الخليفة الثامن للفاطميين عام 1094، تشرذمت القضية الإسماعيلية، وظهر انقسام داخلي كبير وواصلت نشاطها في فرعَين: النزارية



والمستعلية.

بدأ الإسماعيليون النزاريون، بقيادة حسن الصباح، نشاطهم في المنطقة الإيرانية بشكل مستقل عن الفاطميين، ومع مرور الوقت، انفصلوا تمامًا عن الفاطميين من حيث المذهب والفهم السياسي. وقد واجه الإسماعيليون النزاريون، الذين أسسوا أنفسهم بسهولة في الأجزاء العليا من سلاسل جبال رودبار وكوهستان وديلم والبرز في الجغرافيا الإيرانية، صعوبة أكبر في التنظيم في المنطقة السورية مقارنة بإيران، إذ كان هناك قضاة سلاجقة ومن ثَم قضاة سنة آخرون وصليبيون وجماعات شيعية أخرى في المنطقة. ولهذا السبب، استغرق الإسماعيليون النزاريون ما يقرب من نصف قرن للاستيلاء على مجموعة من المواقع المحصنة في المنطقة السورية.

لقد واجه النزاريون صراعات متعددة مع الصليبيين والحكام السنة والفاطميين وغيرهم من الجماعات الشيعية. وفي هذا السياق، استغرقت إعادة هيكلتهم في المنطقة السورية بعض الوقت. وخلال عملية الاستيطان في حلب التي جرت عام 1113، حصل النزاريون على دعم جدي من القاضي رضوان بن تتش في سورية. وقد سمح رضوان للإسماعيليين بالقيام بالدعاية علنًا في حلب. وبعد ذلك سمح باستخدام حلب كمركز مهم لدعاية النزاريين. وفي هذه العملية، كانت سياسة الإسماعيلية النزارية هي التعاون مع القاضي المحلي رضوان والصراع مع الإسماعيلية المستعلية،



في حين تم اتّباع سياسة الاستيطان في حلب. ونتيجة للتعاون بين رضوان والإسماعيليين النزاريين، جرت محاولة للاستيلاء على قلعة أفامية، إحدى القلاع المهمة بالقرب من حلب.

سعى الدعاة النزاريون في سورية إلى توسيع وجودهم العسكري في المنطقة، ودخلوا في اتصالات وصراعات مع الصليبيين. ولم يكن إنشاء هذه الشبكة خلال الحروب الصليبية سهلًا على الإطلاق. وبينما انتهجوا سياسة تتغير باختلاف الزمان والمكان، ظهرت المؤامرات والاغتيالات والتحالفات المختلفة. إن الاغتيالات التي ارتكبها الإسماعيليون سوف تشرح لنا هذه العملية المعقدة بشكل أفضل. وكانت هناك اغتيالات كبرى ارتكبها الإسماعيليون السوريون خلال الحروب الصليبية، ويكشف تنوع الضحايا بشكل لافت عن سياسة الإسماعيليين النزاريين في الصراع الصليبي الإسلامي في المنطقة. ومن بين الضحايا الـ 17 في قائمة الاغتيالات آنذاك، ثمّة سبعةٌ من السُنَّة، أربعةُ مسيحيين، ثلاثةُ إسماعيليين فاطميين، ودرزيَّان، وإمامي شيعي.

وعندما ننظر إلى العلاقات مع الصليبيين، فإن النزاريين الذين طغى عليهم الحكام السلاجقة، خاصة في أثناء عملية الاستيطان في المنطقة، لجؤوا إلى الصليبيين في أول فرصة، لكنهم لم يتورعوا عن اغتيال القادة الصليبيين، نتيجة لتغير المصالح والتحالفات السياسية. وخلال الفترة التي تعاون



فيها الإسماعيليون مع الأيوبيين والمماليك، كان الهدف الرئيس لخناجرهم هو الإفرنج.



العلاقات الغامضة مع فرسان المعبد وفرسان الإسبتارية

كانت العلاقات بين النزاريين وفرسان المعبد وفرسان الإسبتارية إشكالية دائمًا ومتضاربة وغامضة. ففي قلب المفاوضات الدبلوماسية مع القوات الصليبية تلقت هاتان المنظمتان أوامرهما من البابا فقط، وكانتا تتصرفان بحرية وتشكلان قوة مستقلة في المنطقة السورية. وكانت هذه المنظمات العسكرية، التي قدمت الدعم العسكري لمقاطعات الصليبيين، وحمت طرق الحج إلى الأراضي المقدسة، وزادت ثرواتها، عبارة عن مجتمعات محاربة كبيرة ومنظمة تنظيمًا جيدًا.

وضمن البنية الدبلوماسية والسياسية المعقدة في المنطقة، مارست هاتان المنظمتان ضغوطًا جدية على الإسماعيليين النزاريين. واللافت للنظر أن الإسماعيليين النزاريين لم ينفذوا اغتيالات ضد هاتَين المنظمتَين، واضطروا إلى دفع الضرائب لهم لسنوات طويلة. في عام 1228، وبينما استمر النزاريون السوريون في دفع الضرائب إلى فرسان المعبد، بدؤوا أيضًا في دفع الضرائب إلى فرسان الإسبتارية وفقًا لشروط اتفاقية التعاون، واتفقوا معهم أكثر من مرة.

وفي هذه الأثناء، استمر النزاريون، الذين تعاونوا مع هاتَين المنظمتَين، في دفع الضرائب. حتى إنهم حاولوا إلغاء الضريبة عبر الحلول الدبلوماسية بدلًا من محاولة



اغتيالهم. ولم تسفر المفاوضات الدبلوماسية التي جرت عن طريق الملكَين عموري الأول وفريدريك الثاني عن نتائج، وكان على النزاريين دفع الضرائب للفرسان حتى عهد السلطان بيبرس. في ظل تغير ميزان القوى خلال العصر المملوكي، اضطر الإسماعيليون، الذين تضاءلت قوتهم السياسية تدريجيًّا، إلى دفع الضرائب لبيبرس وفقًا لاتفاقية السلام المبرمة بين بيبرس وفرسان الإسبتارية، وأصبحوا موالين فعليًّا للمماليك. وفي هذه الأثناء، تمرد الإسماعيليون في قلاع قدموس ومينقا، إذ إنهم لم يرضوا بالسياسات السنية والقمعية التي طبقها بيبرس عليهم، وتواصلوا مع كونت أنطاكيا بوهيموند السادس وحصلوا على المساعدة، وخاطروا بإرسال اثنَين من فدائيي الإسماعيليين لاغتيال بيبرس في أثناء محاصرته لقلعة حصن الأكراد التي كانت تحت سيطرة الفرنجة.

وقد اعتقل بيبرس الإسماعيليين الذين تعاونوا مع الصليبيين وحاولوا قتله. وبسبب محاولة الاغتيال هذه، انتُهك اتفاق حسن النية السابق بين بيبرس والنزاريين، وقام بيبرس باعتقال الزعيم النزاري شمس الدين بتهمة التعاون مع الفرنجة. وفي الوقت نفسه، خلال الحملة الصليبية السابعة، كانت علاقة النزاريين بلويس التاسع ملك فرنسا مهمة. وفي الأيام التي وطأت فيها قدم لويس عكا، جاء إلى حضرته سفراء الإسماعيلية النزارية. ولاحقًا، تبادلوا الهدايا، وتناقشوا حول التعاليم الدينية من



خلال السفراء. وهو ما يثبت العلاقة الإيجابية بينهما.



مسألة الشرعية

إلى جانب الصليبيين، تواصل الإسماعيليون النزاريون أيضًا وتفاعلوا مع الجماعات الشيعية الأخرى، خاصة في المنطقة السورية. وفي حين أن النزاريين لجؤوا إلى الاغتيالات لأغراض الشرعية، والسيطرة الإقليمية، والانتقام، فقد كافحوا ليصبحوا القوة الوحيدة في المنطقة، وخاصة بعد انقسام الإسماعيليين الفاطميين فرعَين، في إثر الصراع على الشرعية بين المستعلية والنزارية.

وقد قاد هذا النضال الخليفة الفاطمي العاشر الآمر بأحكام الله أبو علي منصور بن أحمد، ويظهر ذلك بوضوح في اغتيال الوزير الأفضل. ومن ناحية أخرى، ارتُكبت اغتيالات إقليمية، وتصاعدت الخلافات بين الجماعات الشيعية المتصارعة على الهيمنة في الجغرافيا نفسها. ويعد اغتيال الزعيم الدرزي برق بن جندل أحد الأمثلة على ذلك. وقد لعب القائد الإسماعيلي بُهرام دورًا رئيسًا في مقتل برق بن جندل. وكردّ فعل على هذه الأحداث، اضطرب السلام في المنطقة، ولم يعد من الممكن تحقيق السلام الإقليمي.

وعندما ننظر إلى الأحداث بشكل عام، نلاحظ أن الإسماعيليين النزاريين كانوا بين الجماعات السنية أو المستعلية أو الشيعية في المنطقة، أقوياء بما يكفي لمعارضة القوى الأخرى في المنطقة السورية؛ بسبب نجاحهم في



إيران. غير أن الانقسام السياسي في سورية إلى مستويات أكبر مع وصول الصليبيين إلى المنطقة في الفترة نفسها، ومع سيطرة الصليبيين السريعة على الساحل السوري وإنشاء أربع ولايات هي أورفة وأنطاكية وطرابلس والقدس، فقد ازدادت الأوضاع ارتباكًا.



راشد الدين سنان

راشد الدين سنان، الـمُلقب بـ(شيخ الجبل)، هو زعيم إسماعيلي لا يقل شهرة عن حسن الصباح. وهناك سجلات تشير إلى أن سنان، الذي لا يُعرف عنه سوى القليل، كان بطلًا قديسًا، قادرًا على القيام بمعجزات مختلفة، وكان كيميائيًّا. ولد لعائلة شريفة من البصرة، وعمل مدرسًا فترة. اسمه الحقيقي سنان بن سلمان بن محمد. بعد أن أكمل تعليمه في البصرة، تعرف سنان على الإسماعيلية، وذهب إلى آلموت حيث التقى بمعلم آلموت الثاني. تلقى تدريبًا على التكتيكات العسكرية والدعائية. وينقل برنارد لويس حوار راشد الدين سنان مع أحد العرب عن تحوله إلى الإسماعيلية على النحو التالي:

"قضيت طفولتي في البصرة، وكان والدي من وجهاء المدينة. لقد تغلغل هذا التعليم في قلبي، ثم اضطررت إلى ترك إخوتي، فانطلقت بلا دابة ولا زاد. وتابعت طريقي حتى وصلت إلى آلموت. وكان رئيس آلموت رجلًا يُدعى كيا محمد. وكان لهذا الشخص ولدان هما حسن وحسين. لقد أرسلني إلى المدرسة نفسها مع أبنائه، ولم يفرقني عنهما ولو للحظة واحدة. وعندما توفي كيا محمد، مكثت في آلموت حتى تولى الحكم ابنه حسن الذي أمرني بالذهاب إلى سورية. وغادرت آلموت كما غادرت البصرة. وكنت أحمل معي رسالة موجهة إلى أحد أصحابنا في الرقة. سلمت الرسالة إلى صاحبها، فأطعمني واستأجر دابة لتأخذني إلى



حلب. والتقيت رفيق آخر في حلب، فاستأجر لي جبلًا، وأرسلني إلى كهف، وأمرني بالبقاء في ذلك المكان، وبقيت فيه حتى مات الشيخ أبو محمد زعيم الدعوة في الجبل. (لويس، 1995: 84).

وبينما يلخص راشد الدين سنان لقاءه مع الإسماعيلية ورحلته إلى آلموت، نرى أنه تلقى تعليمه شخصيًّا في آلموت. ولا بد أن تكون الرسالة التي ذكرها هي إعلان حسن الثاني القيامة. وقد أُعلن عن القيامة في ما بعد عام 1164، ونُظِّمت احتفالات مماثلة لتلك التي أقيمت من قبل في إيران. غير أن راشد الدين سنان، الذي أظهر استقلالًا متزايدًا بمعارضته للمركزية في عهد محمد الثاني، لم يتمكن من إعطاء عقيدة إعلان القيامة التي تطورت في إيران موقعًا مركزيًّا في فكر النزاريين السوريين. غير أن هناك معلومات تفيد بأن محمد الثاني أرسل فدائيين من آلموت لقتل راشد الدين سنان نتيجة تزايد الخلافات مع الإسماعيليين النزاريين السوريين.

راشد الدين سنان، الذي عمل منفصلًا عن آلموت كشيخ الجبل، دخل سورية سرًّا عبر الموصل والرقة وحلب، وتوجه إلى قلعة الكهف، أقوى القلاع الإسماعيلية في جبل البحيرة التي كانت تحت قيادة نور الدين زنكي، وتولى قيادة الإسماعيليين. وأول ما فعله راشد الدين سنان فور توليه السيطرة هو توحيد المنطقة واستعادة قلعتَي الرصافة والخوابي، وضمَّ قلعة العليقة التي كانت



تحت حكم فرسان المعبد. وفي هذه الأثناء كان يتنقل ذهابًا وإيابًا بين القلاع الإسماعيلية، بما في ذلك مصياف والكهف وقدموس، لحلِّ المشكلات التي نشأت بين الإسماعيليين، وحاول تحقيق الوحدة بينهم.

في هذه الأثناء، توترت العلاقات بين نور الدين زنكي، وهو قوة أخرى في المنطقة، وراشد الدين سنان، بسبب نشاط الإسماعيليين في المنطقة السورية. وفي عهد نور الدين زنكي، دخل السلطان الأيوبي صلاح الدين الأيوبي مصر بالكامل، ودمَّر السلطة الفاطمية، ودخل في حرب مخططة ضد الصليبيين. ومع ذلك، نتيجة لوفاة نور الدين زنكي في العام نفسه الذي توفي فيه ملك القدس عموري، تولى صلاح الدين دورًا ضد الصليبيين، وأصبح أخطر عدو للإسماعيليين. وفي ظل هذه الظروف، حاول الإسماعيليون الاتفاق مع أتباع زنكي ضد صلاح الدين. دخل صلاح الدين أولًا دمشق، ثم سار شمالًا، وبعد الاستيلاء على حمص، حاصر حلب. وفي الواقع، بعد وفاة نور الدين زنكي، سيطر صلاح الدين الأيوبي، الذي دعاه الأمراء في دمشق، على سورية نتيجة جهود طويلة. وبعد أن أرسل الخليفة العباسي وثيقته التي تعترف بسيادة صلاح الدين الأيوبي على مصر وسورية والجزيرة عام 1174، أعلن السلطان استقلاله وأُلقيت خطبة باسمه.

وقد أرسل نائب الملك الصالح ابن نور الدين زنكي، الذي أصبح زعيمًا للزنكيين، رسلًا إلى راشد الدين سنان،



وطلب منه اغتيال صلاح الدين مقابل الأرض والمال. وقَبل راشد الدين سنان عرض القضاء على صلاح الدين، أخطر أعدائه في المنطقة. وأرسل أتباعه إلى معسكر صلاح الدين يوم الجمعة عام 1174. لكن الاغتيال مُنع من خلال القبض على الفدائيين. وخلال الفترة التي حاصر فيها صلاح الدين شمال حلب، تعرض لمحاولة اغتيال ثانية على يد الإسماعيليين، لكنه نجا مرة أخرى بفضل الدرع التي يرتديها. وبسبب محاولات الاغتيال، قام صلاح الدين الأيوبي، للانتقام من الإسماعيليين، بمهاجمة أراضيهم وحاصر قلعة مصياف فترة قصيرة، إلا أنه اضطر إلى عقد هدنة مع راشد الدين سنان بناءً على إصرار خاله شهاب الدين محمود بن تكش، الذي رأى فائدة الانسجام مع جيرانه الإسماعيليين، وانسحب من الأراضي الإسماعيلية.

ومع ذلك، في هذه الأثناء، تدهورت العلاقات بين راشد الدين سنان وزنكي حلب، وغيَّر الفدائيون الإسماعيليون مواقفهم، وقتلوا أحد وزراء الملك الصالح، شهاب الدين بن العجمي، في الجامع الكبير بحلب. ومن ثم استعاد الملك الصالح المناطق التي كانت تحت سيطرة الإسماعيليين في عام 1180 - 1179. وردًّا على هذه الأحداث، أشعل الإسماعيليون الحرائق في سوق حلب.

لقد كانت معظم قلاع الفرنجة تقع قريبًا من القلاع الإسماعيلية، وكان على الإسماعيليين إقامة علاقات مع الفرنجة. ومع ذلك، فضَّل الإسماعيليون الوقوف إلى جانب



صلاح الدين في علاقاتهم ضد الفرنجة. وكان هذا بسبب الموقف العدائي لفرسان المعبد والسياسة الرسمية لفرسان الإسبتارية في القدس ضد الإسماعيليين. وإضافة إلى ذلك، فإن هجوم فرسان الإسبتارية على حامية الإسماعيليين العسكرية، الواقعة قريبًا من قدموس، عام 1186 لم يترك لراشد الدين سنان خيارًا آخر سوى دعم صلاح الدين الأيوبي. وفي هذه الأثناء، قام الإسماعيليون باغتيال كوندراد مونفيراتو، زوج إيزابيلا ابنة الملك عموري، وملك الفرنجة المنتخب حديثًا على القدس.

وفي حين نفذ راشد الدين سنان كل هذه الأنشطة تحت مركز آلموت، فقد عمل لاحقًا كهيكل مستقل ومنفصل في المنطقة السورية. وفي أثناء ولائه لآلموت، أرسل حسن الثاني سيد آلموت، مبعوثًا إلى سورية ليعلن القيامة. كما أعلن راشد الدين سنان إعلان القيامة في وقت ما بعد عام 1164 ونظم احتفالات مماثلة لتلك التي أقيمت من قبل في إيران. ومع ذلك، فمن المفهوم أن عقيدة إعلان القيامة التي تطورت في إيران في عهد راشد الدين سنان، الذي أظهر استقلالًا متزايدًا ضد المركز في عهد محمد الثاني، لم تكتسب موقعًا مركزيًا في فكر النزاريين السوريين. وفي الواقع، نتيجة للاختلافات المتزايدة في الرأي، هناك معلومات تفيد بأن محمد الثاني أرسل فدائيين من آلموت لقتل راشد الدين سنان.

كما جرت الاغتيالات أيضًا في عهد راشد الدين سنان،



كما حدث مع النزاريين، وذلك تماشياً مع تغير المصالح السياسية في المنطقة السورية. وكان جميع حكام العرب والإفرنج في المنطقة خائفين من أن يأمر راشد الدين سنان باغتيالهم. وبعد وفاة راشد الدين سنان في قلعة الكهف عام 1193، استُبدِل به داعٍ إيرانيٌّ آخر هو أبو منصور بن محمد. لم يتمكن أي من خلفاء راشد الدين سنان من الحفاظ على حكم مستقل تماماً عن آلموت. واستمرت العلاقات المماثلة مع الفرنجة والأيوبيين بطريقة معقدة.



المصادر

- آقسرائي، كريم الدين محمود، مسامرة الأخبار، ترجمة مورسال أوزتورك، أنقرة 2000.

- أبو الفرج، تاريخ أبي الفرج، ترجمة عمر رضا دوغرول، المجلد الثاني، أنقرة 1945.

- الجويني، علاء الدين عطا ملك، تاريخ جهان كوشا، ترجمة مورسال أوزتورك، أنقرة 1999.

- البنداري، زبدة النصرة ونخبة الفكرة، (تاريخ سلاجقة العراق وخراسان)، ترجمة قوام الدين برسلان، أنقرة 1999.

- الحسيني، زبدة التواريخ (أخبار الدولة السلجوقية)، أنقرة 1943.

- الخراساني، محمد بن زين العابدين، تاريخ الإسماعيلية، طهران.

- غفاري، تاريخ جهان آرا، طهران.

- الهمذاني، رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، طهران.

- خسرو، ناصر، سفر نامه، ترجمة عبد الوهاب طرزي، إسطنبول 1985.

- ابن بطوطة، ابن بطوطة ورحلاته، المجلد الثاني،



إسطنبول 2004.

- ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، دمشق 1951-1968.

- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ترجمة عبد الكريم عز الدين، المجلد 11-10، إسطنبول، 1987.

- نظام الملك، سياست نامه، ترجمة نور الدين بابورتولوجيل، إسطنبول، 2003.

- النيسابوري، ظهير الدين، ذيل سلجوق نامه، طهران.

- منجم باشي، جامع الدول، خراسان، العراق، كرمان والسلاجقة السوريون، إزمير 2000.

- ماركو بولو، كتاب العجائب، ترجمة إيشيك أرجودن، إسطنبول، 2003.

الأعمال البحثية والمقالات الموسوعية

- أجار، عبد الرحمن، السياسة الدينية للسلطان السلجوقي سنجر (الخلافة العباسية والعلاقات مع الإسماعيليين)، أنقرة، 1997.

- أديغوزيل، عدنان، محمد شريف الدين "تبسيط مقالة يالتقايا عن الفاطميين وحسن الصباح"، مجلة شرقيات للأبحاث العلمية 2014.

- ألبتكين، جوشكون، "أكسونغور البورسكي"، وقف



الديانة التركية، المجلد الثاني، إسطنبول، 1989.

- أريانجان أتيجي، عائشة، شيخ الجبل حسن الصباح وآلموت، دار يديتبة للنشر، إسطنبول، 2012.

- "الإسماعيليون النزاريون والنصيريون"، مجلة أبحاث حاج بكتاش ولي، عدد خاص، ص54، أنقرة، 2010.

- "مصادر دخل الإسماعيليين النزاريين"، المجلة السلجوقية للأبحاث التركية، ص26، قونية، 2008.

- "رجال الدولة السلاجقة الذين دعموا التنظيم الإسماعيلي النزاري"، الندوة العالمية السلجوقية الأولى، قيصري، 2010.

- "اغتيال رجال الدولة في عهد حسن الصباح وخلفائه"، إكاناس، الكونغرس، أنقرة، 2007.

- عظيم نانجي، دفتري، فرهاد، "الإسماعيليون ودورهم في تاريخ سورية في العصور الوسطى والشرق الأدنى"، صندوق الآغا خان للثقافة، معهد الدراسات الإسماعيلية، لندن، 2007.

- بيركساج، أ. إنجين، "الفاطميون"، منشورات المؤسسة الدينية التركية، المجلد الثاني، إسطنبول، 1995.

- قناتان، محمد، الحركات الطائفية في عصر الإمبراطورية السلجوقية الكبرى، رسالة ماجستير غير منشورة، أنقرة، 1986.



- كارا، ب. فو دي، "الباطنية"، الموسوعة الأولى للإسلام لإي جي بريل 1913-1936، المجلد. الثاني، نيويورك، 1987.

- كوربين، هنري، تاريخ الفلسفة الإسلامية (من البداية إلى وفاة ابن رشد، 1986)، ترانس. حسين حاتمي، إسطنبول، 1986.

- جاتاي نيشت، التاريخ الإسلامي (من البداية إلى العباسيين)، TTK، أنقرة، 1993.

- جيليك، محمد، "الأمثلة الأولى لاستخدام الدين في السياسة في التاريخ الإسلامي"، مجلة جامعة الفرات للعلوم الاجتماعية، المجلد 10، العدد 1، إيلازيغ، 2000.

- كوروهلو، يشار، "مسجد الجمعة في أصفهان"، DIA، منشورات المؤسسة الدينية التركية، المجلد 22، إسطنبول: 2000، ص 504-506.

- جوبوجو، إبراهيم آغا، الغزالي والباطنية، أنقرة، 1964.

- دفتري، فرهاد، الإسماعيليون: التاريخ والنظرية، ترجمة جومنت أوزكايا، أنقرة، 2001.

- دوغرول، عمر رضا، فدائيو جنة حسن الصباح، دار نقش للنشر، إسطنبول، 1975.

- أكينجي، عبد الله، "التيارات الفكرية الناشئة في



الشرق الأوسط، مجلة أبحاث الشرق الأوسط، المجلد الأول، العدد الثاني، إلازِيغ، 2003.

- إدوارد، ويليام لين، المعجم العربي الإنجليزي، المجلد الأول والثاني، إدنبرة، 1863.

- إليادي، ميرسيا، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية (من محمد إلى عصر الإصلاح)، ترجمة علي بركتاي، إسطنبول، 2003.

- الشهرستاني، أبو الفتح، "الملل والنحل"، (مقدمات)، مجلة كلية أصول الدين، المجلد 30، أنقرة، 1978.

أيوب أوغلو، عصمت زكي، البكتاشية (العلوية) في جميع جوانبها، منشورات يني جير، إسطنبول، 1980.

- قديروف، مدربك، آغا خان الإسماعيليين، رسالة ماجستير غير منشورة، أنقرة، 2009.

- قفص أوغلو، إبراهيم، الإمبراطورية السلجوقية الكبرى في عهد السلطان ملكشاه، إسطنبول، 1953.

- كارا، سيف الله، الصراعات الطائفية عند السلاجقة الكبار، منشورات إيز، إسطنبول، 2009.

- كايكوسوز إسماعيل، حسن الصباح، مؤسس الدولة الإسماعيلية النزارية وآلموت (تعاليمه وتاريخه وفلسفته)، إسطنبول، 2004.

- كسكين أوغلو، عثمان، العالم الإسلامي أمس واليوم،



أنقرة، 1964.

- لويس، برنارد، الشرق الأوسط، ترجمة سيلين ي. كولاي، منشورات دوست، إسطنبول، 2003.

- سيشن، رمضان، "الأيوبيون"، منشورات المؤسسة الدينية التركية، المجلد الثاني عشر، إسطنبول، 1995.

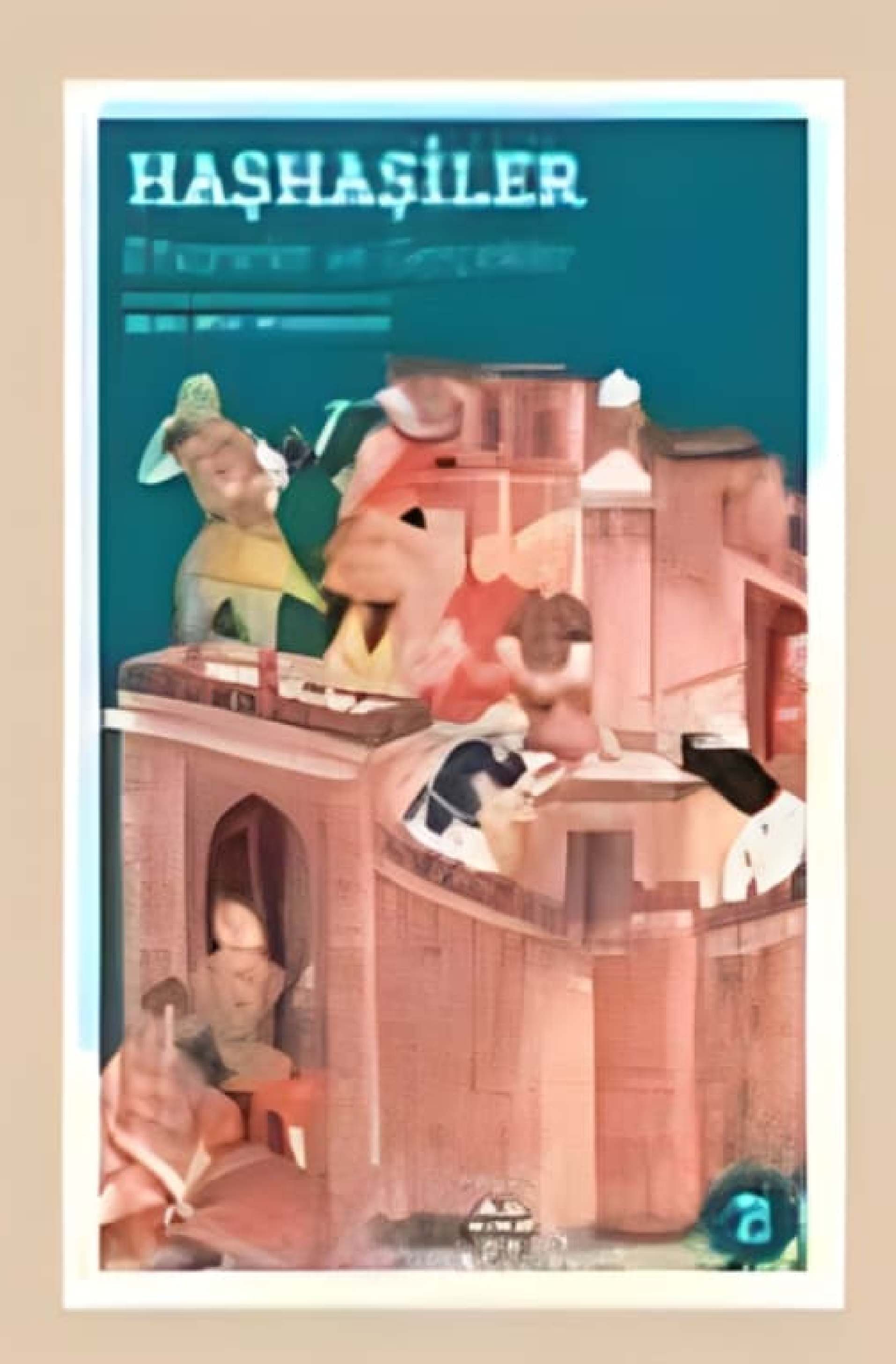
- أسطى، آيدن، التحالفات السياسية الإسلامية والصليبية، الحروب الصليبية في ظل المصالح، إسطنبول، 2008.

- يلدز، حقي دورسون، "السلاجقة"، تاريخ الإسلام العظيم من الولادة إلى الحاضر، المجلد السابع، إسطنبول، 1989.

- زهرة، محمد إيبو، تاريخ الفرق السياسية والمذهبية في الإسلام، ترجمة أدهم روحي، إسطنبول، 1970.

- زيترستين، ك. ف، "حسن الصباح"، المجلد الثالث، كولونيا، 1987.





ما زالت الأساطير والحكايات المختلقة حول حسن الصباح والإسماعيليين تتردد حتى اليوم، وقد رسمت لهم صورة غامضة وأسطورية. وكان تاريخهم، الذي يُروى بين الواقع والأسطورة، موضوعاً للأفلام والروايات. ويمكن القول إن أغلب ما يُروى عن طائفة الحشّاشين خيالي وبعيد عن الحقيقة التاريخية.

وتأتي هذه الدراسة محاولةً لبيان حقيقة القصص الملفّقة التي تعلّمها وقرأها وصدّقها كثير من الناس، إذ تكشف الباحثة والأكاديمية التركية عائشة أتيجي أرايانجان، المختصّة في تاريخ الحركات الباطنية في الإمبراطورية السلجوقية، عن حقيقة الأساطير التي رُويت عن حسن الصباح، استناداً إلى الوثائق التاريخية. وتتطرق باستفاضة إلى شبكة حسن الصباح الدعائية وهياكلها الاستخباراتية والتنظيمية.

فهل كانت حديقة الجنة في قلعة آلموت حقاً؟ وهل كان الحرّاس يقفزون إلى حتفهم؟ وهل كان الهيكل الذي أسسه حسن الصباح دولة أم تنظيماً أم طائفة؟ وكيف تسللوا إلى الدولة والجيش السلجوقي؟ وما عقيدتهم وطرق مقاومتهم وولائهم؟ وهل كانوا يستخدمون الحشخاش؟ وما علاقتهم بالصليبيين؟ وهل كان حسن الصباح ونظام الملك وعمر الخيام أصدقاء؟

تجيب هذه الدراسة عن كلّ هذه التساؤلات، وتمنح عُشّاق التاريخ منظوراً جديداً عن الحشّاشين، وأكثر الموضوعات فضولاً حولهم، مثل قوائم الاغتيالات في العاصمة السلجوقية أصفهان، مع إعادة تقييم للأحداث التي وقعت في تلك المرحلة الشائكة، بنظرة مختلفة وموضوعية، وبلغة بسيطة سهلة.

9 786145 050322





YEDİTEPE

